

مفهوم البلاغة

لغة واصطلاحاً

الكتور محمد هادي رياض

كلية الآداب - جامعة بغداد

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

قد يبدو الموضوع معاد مكروراً ، لأنه الآسن حتى عانته ، وملكت به الاسماع حتى مجته ، وهو كذلك حقاً وصدقاً ، فقد تناوله اللغويون الأوائل منذ شرعوا في جمع مواد اللغة ومفرداتها ، وبذلوا ما بذلوه في إيضاح دلالاتها ، وأرسي اللاحق منهم على ما ذكره السابق ، حتى لم تعد هناك زيادة لستريد .

وعني البغاء بها عناية اللغويين واكثر ، فلم يكفوا بإيضاح دلالة البلاغة في العربية ، وإنما ذكروا ما عرفوه عنها في غيرها من اللغات. وما نقله الجاحظ من سؤالهم الفارسي ، واليوناني ، والرومي والهندي عما تعنيه البلاغة عندهم خير ما يمثل هذه العناية .

كيف لا يعني البغاء والبلاغيون بها مثل هذه العناية ، وهي بلرة البحث البلاغي ، والاساس الذي يستد اليه ، فلا غرابة ان قلت فيها اقوال وأقوال على تعاقب الازمان والاجيال ، حتى استوت علوم البلاغة ، واستقرت مصطلحاتها عند متأخري البلاغيين ، الذين ورثوا التراث البلاغي ، وخلفوه لنا بعد أن أشبعوه بحثاً وتدقيقاً ، وانتهوا به الى ما انتهوا من كثرة موضوعاته وتنوعها ، والتنان بتفريع فروعها ، وشغف بحدودها وتعريفاتها ، وأشارت الى اصولها اللغوية ،

وتنافس في اختصار مرادها ، وشرحها ، والتعليق عليها ، وتدوين الحواشي على تلك الشروح والتعليقات وبذل ما بذل من جهد ووقت في ذلك كله .

وجاء العصر الحديث ، فاكتفى اكثر المحدثين والمعاصرين من المعنيين بالبلاغة والتأليف المدرسي فيها ، بأخذ هذا الذي انتهى اليه اولئك المتأخرون لغة واصطلاحا ، ومنهم من عرج على لسان العرب لابن منظور ، ليأخذ منه ما يوثق به الدلالة اللغوية التي ذكرها لهذا المصطلح او ذلك ، لكونه موسوعة ضمت خمسة من المعاجم اللغوية الكبيرة التي سبقتة . وتهيأ لهم بهذا قد احاطوا علما بدلالاتي المصطلح : اللغوية والاصطلاحية ، ماداموا قد وقفوا على آخر ما انتهت اليه اللغة والبلاغة في دلالاته . وفاتهم أن أولئك البلاغيين كانوا قد نبهونا الى أن البلاغة لم تنضج ، ولم تحترق ، خلافا لاكثر فروغ العربية ، التي تتم على ايديهم نضجها واحتراقها ، فكأنهم بهذا قد حملوا امانة النظر فيما قالوه فيها ، وانضاجه بالبحث والدواسة ، وتلافي ما ينتقصها مما لم يهتدوا اليه ، أو يقرولوا فيه .

كما فاتهم أن في غير اللسان من المعاجم ما ليس فيه ، وان العربية لغة اشتقاقية ، تتألف من أسر او مراد لغوية ، ومعرفة اللفظ المفرد فيها لاتزيد على معرفة فرد من الافراد في اسرة من الاسر ، لاتعد شيئا اذا ما قيت بمعرفة ، ومعرفة الاسرة كلها بجميع افرادها . ومن المعاصرين من ساير المصطلح ، ووقف على دلالاته ، وما قبل فيها ، وجمع النصوص الشعرية والنثرية التي ورد فيها ، مبتدئا باقتسامها الى آخر ما انتهى اليه أمره ، عندما استقرت لهذه المصطلحات دلالاتها الاصطلاحية . غير ان العزل على المعاجم اللغوية ظل مقتضرا على اللسان او كاد ، في عدد غير قليل من الرسائل الجامعية التي لم تتناول مصطلح البلاغة .

ولأريد بهذا كله ، أن أقلل من أهمية جهود الآخرين ، فالوقوف على ما انتهى اليه اولئك العلماء الاعلام ، من البلاغيين المتأخرين ، ضرورة لاغنى لنا عنها ، بعد الذي أشرنا اليه من جهودهم فيها ، تلك الجهود التي نتمنى لو

الدكتور محمد جابر فياض

أنا جدنا على البلاغة ومصطلحاتها بما يقرب منها ، غير أن هذا لا يعني أخذ كل ما قالوه من غير ما فحص ولا تدقيق ، وكأنه بديهية من البديهيات ، أو مسلمة من المسلمات بعد الذي رأيناه من قولهم أن البلاغة لم تنضج ولم تحترق .

ومسيرة المصطلح ، والوقوف على دلالاته في السياق الذي ورد فيه ، وترتيب النصوص التي تضمنته ، بحسب تسلسلها الزمني قبل أن يتخذ مصطلحا محدد الدلالة ، تأتي الضوء على تطوره الدلالي في مراحلها المختلفة ، فيما تبرزه وتبرز وجهة النظر الأدبية أو الفنية فيه . والبلاغة فن القول ، وصياغة الكلام ، أن تكون شيئا آخر . ولكن هذه المسيرة تفقد غير قليل من أهميتها ، إذا ما اقتصر البحث على مجرد الجمع والترتيب ، من غير ما مفاضلة ، أو ترجيح ، أو أساك بخيط التطور الدلالي ، الذي يربط بين دلالات المصطلح المختلفة باختلاف العصور .

فالوقوف على الدلالات اللغوية والاصطلاحية ، أمر على غاية من الأهمية ، ولا يقل الوقوف على ما بينهما ، أكون المصطلحات البلاغية - كما يبدو لي - لم ترتجل ارتجالا ، منقطع الصلة عن معانيها اللغوية ، وإنما اختيرت اختيارا ، وانتقيت انتقاء . ولاختيارها وانتقائها مبررات مقنعة ، تحسب لبلاغتنا العربية ، لاعليها . فإن لم نكشف اللثام عن هذه الصلة ، ظلت الحيرة في الأذهان ، أن لم تجر على اللسان . ولتدخيت هذه الصلة على كثير من المعنيين بالبلاغة ، أو بدت غير واضحة ، أو مقنعة لهم ، لدرجة صارت معها موضوع أخذ ورد في بعض المجامع اللغوية . فلقد تساءل استاذي الدكتور عبد الرزاق محيي الدين عضو المجمع العراقي ورئيسه السابق - في بحث له نوقش في المجمع - عن مفهومي البلاغة والنصاحة فقال : في مقدمة مايلور في نفسي مراجعته ، هذان المصطلحان : كلمتا (النصاحة) و (البلاغة) ، ماذا تعنيان ؟ وبأي شروط يتحقق مفهومها ؟ وما واقع الصلة - في حدود شروطه - بالآثار الأدبية قديماً

وحديثاً؟ وهل هناك احساس بالصلة بينهما، وبين الاثر الادبي عند الحكم عليه (١)؟
وقام الزميل الدكتور أحمد مطلوب بدراسة المصطلحات البلاغية الاربعة الرئيسة:
البلاغة والنفصاحة والبيان والبديع في كتاب خاص بها (٢). ولو انضحت هذه
المصطلحات وضوحاً كافياً لغة واصطلاحاً، وبانت الصلات بين معانيها اللغوية
والاصطلاحية لما كان من تساؤل المجمعين، وتأليف المؤلفين، بعد الذي قيل
فيها قديماً وحديثاً.

ولست ازعم أن محاولتي المتواضعة هذه، يمكن أن توصل الباب بوجه
أقوال اخرى يمكن أن تقال في البلاغة، كما لا أزعّم أنها يمكن أن تستحدث
لها دلالة لغوية أو اصطلاحية جديدة، ولكنها محاولة تتجهج منها آثرته على
غيره، قوامه التحقق من مادة اللفظ اللغوية كلها في المعاجم المختلفة، لتبين صلة
اللفظ بمادته، ودلالته اللغوية، بالدلالة الاصطلاحية.

فاهمية هذا الموضوع — عندي — لا تنحصر في إيضاح ما بدأ مشوباً بشيء من
الغموض في دلالته، ولا في إبراز الصلة بين دلالته، وإنما تتجاوزهما إلى إبراز
المنهج الذي آثرته وأثره، ولا اتردد في الدعوة إليه، في دراسة المصطلحات
البلاغية كلها.

ولم تتناول المحاولة هذا المصطلح لأهميته فحسب، وإنما لأن ما قيل فيه
أكثر بكثير مما قيل في غيره، وإذا اتسع مجال القول فيه، فهو في غيره أوسع.
فهي بهذا تكرر قد جاءت بالمنهج مقروناً باختباره باصعب ما يمكن أن يواجهه
في واقعه التطبيقي، فإذا ما ثبت فضله على ما سواه، أخذنا به، والاعداء عنه —
غير آسفين — إلى غيره، فلا خير في منهج مفترض، لا يأخذ طريقه إلى التطبيق،
أو طبق فلم نلمس له على غيره فضلاً.

(١) مفاهيم بلاغية .

(٢) مصطلحات بلاغية .

الدكتور محمد جابر نياض

ولا اراني مغالياً اذا ما قلت ان اخذي به أثبت لي - في الاقل - فضاه وجدواه . فتحن الى هذا اليوم نردد ما لقناه من أن البلاغة لغة من الرصول والانتهاه من بلغت المكان ، أو الزمان ، أو المقام بلوغاً : اذا وصلت اليه .. وظلت الكتب البلاغية القديمة منها والحديثة ، لاترى للبلاغة أصلاً لغريباً ، غير دلالة البلوغ على الرصول والانتهاه ، وكأن البلاغة مجرد ايصال المعنى الى ذهن السامع أو القارئ . واشترطت الفصاحة في الاقفاظ الموصلة للمعنى في عملية ترقيع لما في هذا المفهوم من قصور عن الوفاء بدلالة البلاغة والا فالبلوغ بمعنى الرصول والانتهاه لا يلزم بذاته بهذا الذي اشترط ، ومع هذا فقد ظل هذا المفهوم - بعد اشتراط الفصاحة - قاصراً عن ان يبالغ شأو المفهوم الاصطلاحي :

« مطابقة فصيح الكلام لما يقضيه الحال » ففي المصطلح تميز الكلام لانتمسه في المفهوم اللغوي . وبدت الصلة بين الداليتين واهية ضعيفة ، لاننا لانعت الكلام بالبلاغة لمجرد ظهور معناه ووصواه الى ذهن السامع أو القارئ وانما نعت بها الكلام المتميز ، الذي يبالغ من نفوسنا ما لا يباخه الكلام العادي .

ولو اتنا فحصنا المادة اللغوية فحصاً دقيقاً ، ومحصناها تمحيصاً متأنياً ، لأنتهينا الى ان البلاغة - لغة - من البلوغ ، بمعنى النضج والاكتمال ، وليست من مجرد الرصول أو الانتهاه ، فالكلام البليغ : هو الكلام المكتمل البليغ ، كالبليغ من كل شئ . وبهذا نتهي الى المطابقة التامة بين الداليتين اللغوية والاصطلاحية ، وما ألفه الناس في حياتهم من اطلاق البليغ على الكلام المتميز بنضجه واكماله .

البلاغة لغة

ذهب ابن فارس - ٣٩٥ هـ محققاً - الى القول بأن « الباء واللام والغين اصل واحد صحيح ، وهو الوصول الى الشئ » . تقول : بلغت المكان ، اذا وصلت اليه ، وقد تسمى المشاركة بلوغاً بحق المقاربة . قال الله تعالى : (فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف [٢ الطلاق ٦٥] . ومن هذا الباب قولهم : هو أحق بلغ : أى انه مع حماقته يبلغ ما يريد . والبلغة : ما تبلغ به من عيش ، كأنه يراد أنه بلغ رتبة المكث ، اذا رضى وقنع ، وكذلك البلاغة التي يمدح بها الفصيح اللسان ، لانه يبلغ بها ما يريد » (١) .

وهكذا نص صراحة على ان المادة اللغوية كلها ترجع الى الوصول لا البلاغة وحدها .

والى مثل هذا ذهب الراجب الاصفهاني - ٥٠٢ هـ ، فقال :
 البلوغ والبالغ : الانتهاء الى اقصى المقصد والنتهى ، مكانا او زمانا او أمراً من الامور المقدرة . وربما يعبر به عن المشاركة عليه ، ان لم ينته اليه . فمن الانتهاء : بلغ أشده ، وبلغ اربعين ، وقوله عز وجل : « فاذا بلغن أجلهن فلا تعضلوهن » [٢٣٢ البقرة ٢] ، و « ما هم ببالغيه » [٥٦ غافر ٤٠] ، « فلما بلغ معه السعي » [١٠٢ الصافات ٣٧] ، « لعلني أبلغ الاسباب » [٣٦ غافر ٤٠] ، « أيمان علينا بالغة » [٣٩ القلم ٦٨] : أى منتهى في التوكيد .

واما قوله عز وجل : « فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف » [٢ الطلاق ٦٥] فللمشاركة ، فانها اذا انتهت الى أقصى الاجل ، لا يصح للزوج مراجعتها

(١) القاميس - مادة (بلغ) .

واما كها (٢) .

والى مثل هذا ركن مجمع اللغة العربية في القاهرة حيث جاء في معجمه :
بلغ الشيءُ يبلغُ بـلرغاً - من باب قعد - وصل اليه ، زمانا كان هذا الشيء
أو مكانا ، أو غيرهما ، حيا أو معزيا فهو بالغ ، وهي بالغة ، وهم بالغون .
وقد جاء في لفظ بلغ في القرآن كلمتان ، يراد بهما شارف وقارب الوصول
ومستدكران في موضعهما . وما عدا ذلك معناه وصول اليه . (٣)

والمعاجم اللغوية مجمعة على ربط معظم مفردات المادة بالوصول أو الانتهاء
وما يتصل بهما من اقدم هذه المعاجم الى احداثها - على تفاوت بينها - ولم تنفرد
المعاجم الثلاثة التي ذكرتها بهذا الربط الذي اشترت اليه . ففي العين :
أبلغته ابلاغاً ، وبلاغته تبليغاً ، في الرسالة ونحوها . . . والمبالغة أن تبليغ من
العمل جهده . . . (٤) .

وفي الجوهرة : « وبلّغت الرسالة تبليغاً . . . ومن أمثالهم : أحقق بلغ :
أي أحقق بياغ ما يريد . والبلغة : القوت ، يتبلغ به الانسان » . (٥) .
وفي التهذيب : « . . . ويقال بلغت القوم الحديث بلاغاً : اسم يقوم مقام
التبليغ . . . ويقال : بلغ فلان ، اذا جهد . . . » (٦) .
وفي الصحاح : « . . . بلغت المكان بلوغاً : وصلت اليه ، وكذلك اذا شارفت
عليه . . . والابلاغ : الايصال ، وكذلك التبليغ . والاسم منه البلاغ . . . » (٧) .
وفي الاساس : « أبلغه سلاهي ، وبلغه . . . ووصل رشاهه بتبليغة : وهو جبل

(٢) المفردات - المادة ذاتها .

(٣) معجم الفاظ القرآن - مادة بلغ .

(٤) المادة ذاتها .

(٥) المادة ذاتها .

(٦) المادة ذاتها .

(٧) المادة ذاتها .

يرصل به حتى يبلغ الماء ، وهو الدرك . ولا بد لأرشيتمكم من تبلغ . . . (A) .
وفي اللسان : « . . . بلغ الشيءُ ببلوغاً ، وبلاغاً : وصل وانتهى ، والمعنى
هو ابلاغاً ، وبلغه تبليغاً . والبلاغ : ما يتبلغ به ، ويتوصل الى الشيء المطلوب
وبلغ الغلام : احتلم ، كأنه بلغ وقت الكتاب عليه والتكليف . . . وبلغ البنت
انتهى » (٩) .

وفي القاموس : « . . . بلغ المكان بلوغاً : وصل اليه ، أو شارف عليه . . .
وأمر الله بالغ : نافذ ، يبلغ ابن يريد . وجيش بلغ كذلك ، والاسم منه الابلاغ
والتبليغ ، وهما الايصال . . . وتبلغ بكذا ، والمترل : تكلف اليه البلوغ حتى
بلغ . . . » (١٠) .

وفي المصباح : « وبلغ الكتاب بلاغاً وبلوغاً : وصل . . . وقولهم : لزم ذلك
بالغاً ما بلغ ، منصوب على الحال : أي مترقياً الى أعلى نهاياته ، من قولهم :
بلغت المنزل : اذا وصلت اليه . . . » (١١) .

فلاشك في أن الوصول أصل أصل بارز في البلوغ ، غير انه ينبغي الا يحجب
الانظار عما يحمله في طياته من بذور التفوق والتفضيل في كل ما ورد في المعاجم
ذاتها من مفردات المادة اللغوية ، فالوصول يتطلب هذا التفوق ويقتضيه ،
سواء كان البلوغ بلوغاً ، كان أوزماناً ، أو أي أمر من الامور ، فالواصل
أقدر من المنقطع قبل الوصول ، وأمكن منه .

ولقد فطن اللغويون الاقدمون الى هذا ، وأبرزوا دلالة المادة اللغوية عليه ،
ونصوا على الجودة بالذات في مفردات المادة . وقد طالعنا الجودة في أول معجم
عربي وظلت تتردد فيما ألف بعده . حيث ابتداء الخليل - ١٧٠ هـ - المادة

(٨) المادة ذاتها .

(٩) مادة بلغ .

(١٠) المادة ذاتها .

(١١) المادة ذاتها .

الدكتور محمد جابر فياض

اللغوية بقوله : « رجل بلغ : بليغ ، وقد بلغ بلاغة . . . وشيء بالغ : أي جيد . » (١٢)

وقال ابن دريد - ٣٢١ هـ : « وكلام بلغ وبلغ . . . وبلغ الرجل بلاغة : إذا صار بليغا . . . » (١٣)

وأخذ الأزهري - ٣٧٠ هـ عن المعنى وعزاه إلى الليث قائلاً : « . . . قال الليث البلغ : البليغ من من الرجال ، وبلغ يبلغ باروغا . . . وشيء بالغ : أي جيد . . . » (١٤)

وقول ابن فارس - ٣٩٥ هـ المقدم : « . . . وكذلك البلاغة التي يمدح بها الفصيح اللسان ، لأنه يبلغ بها ما يريد . . . » (١٥) اعتراف صريح بالجودة ، فالبلاغة صفة مدح يمدح بها المتفوق بفصاحة اللسان ، المتمكن - خلافاً لغيره - من بلوغ ما يريد بجودة لسانه .

وقال الجوهري - ٣٩٩ هـ : « . . . وشيء بالغ : أي جيد ، وقد بلغ في الجودة مبلغا . . . والبلاغة : الفصاحة . وبلغ الرجل بالضم : أي صار صار بليغا . . . » (١٦)

وقال الراغب - ٥٠٢ هـ : « . . . والبلاغة على وجهين : أحدهما : أن يكون بذاته بليغا ، بأن يجمع ثلاثة أوصاف : صواباً في موضوع لنفسه ، وطبقاً للمعنى المقصود به ، وصدقاً في نفسه . وهما احترام وصف من ذلك كان ناقصاً في البلاغة .

(١٢) العين - مادة بلغ .

(١٣) الجهرة - مادة بلغ .

(١٤) التهذيب - المادة ذاتها .

(١٥) المقاييس - المادة ذاتها .

(١٦) الصحاح - المادة ذاتها .

والثاني : أن يكون باعتبار القائل والمقول له ، وهو أن يقصد انتقال أمرا ، فيورده على وجه حقيق أن يقبله (١٧) .

وفي الوجهين اللذين ذكرهما ، ففيهما من اكتمال الكلام وجودته وتميزه ، وتكمن قائله وقدرته .

وقال الزمخشري — ٥٣٨ هـ : وبلغ الرجل بلاغة فهو بليغ ، وهذا قول بليغ . وتبالغ في كلامه : تعاطى البلاغة ، وليس من أهلها ، وما هو بليغ ولكن يتبالغ . . . (١٨) .

وقال ابن منظور — ٧١١ هـ : عن أبي حنيفة : وبلغت النخلة وغيرها من الشجر : حان ادراك ثمرها . وعنه أيضا : شيء بالغ : أي جيد . والبلاغة : الفصاحة . والبلغ والبلغ : البليغ من الرجال ، ورجل بليغ : وبلغ : حسن الكلام فصيح ، يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه ، والجمع بلغاء . وقد بلغ — بالضم — بلاغة : أي صار بليغا . وقول بليغ : بالغ . . . (١٩) .

وقال الفيروز بادي ٧٢٩ هـ : « بلغ المكان بلوغا : وصل إليه ، أو شارف عليه ، والغلام : ادرك . وثناء أبلغ : «بالغ فيه . وشيء بالغ : جيد . وقد بلغ مبلغا . وجارية بالغ وبالغنة : مدركة والبليغ : الفصيح ، يبلغ بعبارة كنه ضميره ، بلغ ككرم (٢٠) .

وقال النيومي ٧٧٠ هـ : وبلغت الثمار : ادركت ونضجت وبلغ — بالضم — بلاغة ، فهو بليغ : إذا كان فصيحاً طلق اللسان . . . (٢١) .

(١٧) المفردات — المادة ذاتها .

(١٨) الأساس — مادة بلغ .

(١٩) اللسان — المادة ذاتها .

(٢٠) التمام — المادة ذاتها .

(٢١) المصباح — المادة ذاتها .

الدكتور محمد جابر نياض

وفي معجم الفاظ القرآن لمجمع اللغة العربية في القاهرة : وقول
بليغ : أي واصل متناه من القوة ، أو هو من بلغ - ككرم - بلاغة ، فهو
بليغ بمعنى كان - أو صار - فصيحاً ، (٢٢) .

من هذا كله يمكن الانتهاء الى أن البلاغة من الفعل بلغ - ككرم -
حصراً ، وليست من الفعل بلغ - كقعد - خلافاً للبارغ بمعنى الوصول .
فلم يرد في كل هذه المعاجم بلغ - بالفتح - بلاغة . وكونها لم تؤخذ من
الفعل بلغ - بالفتح - لا يعني أنها من غير البارغ ، فهي منه واليه ، واكتنفاً
- كما أسلفت - ليست من دلالاته على مجرد الوصول ، وإنما ما يتطلبه الوصول
ويقتضيه من تميز وتفوق الواصل على المقطع فلولا هذا التميز والتفوق ،
ما كان للواصل أن يصل ، والأسباب قبل مسياتها أو نتائجها . فالبارغ والوصول
كل منهما دليل التميز والاكتمال والتفوق ، وأيسر من البارغ عنا بعيداً ،
فما كان البالغ ليكاف ويكتب عليه لولا نضجه واكتماله ، ولهذا خص البالغ
بالجودة في كل هذه المعاجم . وفسر القول البليغ بالبالغ ، فبلاغة الكلام
جودته وتميزه ، وبلاغة المتكلم قدرته على الاجادة وتميزه على غيره بصنع
الكلام الجيد المتميز . ولهذا فسرت البلاغة باللسن والنصاحة وطلاقة
اللسان ، والبليغ بحسن الكلام فصيحته ، الذي يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في
قلبه أو ضميره ، فجاءت البلاغة نعمنا حميدا خاصا بكلام دون سواه ، وأناس
دون آخرين . وطالعتنا الجودة في كل ما عرفت به البلاغة من أقوال ، قبل
قبل استقرار المصطلحات البلاغية وعند استقرارها .

« تطور البلاغة من المعنى اللغوي الى المعنى الاصطلاحي »

حدث ابو حاتم ، قال : حدثني ابو عبيدة ، قال : حدثني غير واحد من هوزان ، من أولي العلم ، وبعضهم قد أدرك أبوه الجاهلية ، قالوا : اجتمع عمرو بن الظرب العدواني وحمسة بن رافع الدوسي عند ملك من ملوك حمير ، فقال : تساءلا حتى اسمع ما تقولان . . فقال عمرو لحمسة : من أبلغ الناس ؟؟ قال : من جلى المعنى المزيز باللفظ الوجيز ، وطبق المفصل قبل التحزيز . (٢٣)

وتطبيق المفصل واصابة المحز من الامثال العربية للحذق ، والمهارة في الكلام ، واصابة المعنى بالقول الموجز .

قال الجاحظ : ويقولون في اصابة عين المعنى بالكلام الموجز : فلان يفل المحز ، ويصيب المفصل . وأخذوا ذلك من صفة الجزار الحاذق ، فجعلوه مثلا للمصيب الموجز ، (٢٤) و اضاف قائلا :

« . . . وقد فر ذلك ليبد بن ربيعة ، وبيته ، وضرب به المثل حيث قال في الحكم بين عامر بن الطفيل ، وعلقمة بن علاثة :

ياهرم بن الاكرمين منصبا
انك قد أوتيت حكما معجبا

فطبق المفصل ، واغتم طيبا

يقول : احكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة بكلمة فصل ، وبأمر قاطع . فتفصل بين الحق والباطل ، كما يفصل الجزار الحاذق مفصل العظمين ، (٢٥)

(٢٣) المقدم ٢/٢٥٦ . والمزيز : الناضل .

(٢٤) البيان والتبيين ١/١٠٧ .

(٢٥) البيان والتبيين ١/١٠٩ .

الدكتور محمد جابر فياض

والمذلل قال معاوية عمرو بن العاص: «ان أهل العراق قد قرفوا بك رجلاً طويلاً اللسان، قصير الرأي، فأجد الحز، وطبق المفصل، وإياك ان تلقاه برأيك كله» (٢٦).

وقال الاصمعي - ٢١٦ - ٥: «البليغ من طبق المفصل، وأغناك عن المفسر» (٢٧). وأول الجاحظ قول الاصمعي هذا بجواب جعفر بن يحيى لثمامة بن الأشرس حين سأله عن البيان قائلاً: ما البيان؟؟ قال: أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلي عن مغزاك، وتخرجه عن الشركة، والامتعتين عليه بالفكرة. والذي لا بد له منه، أن يكون سليماً من التكاف، بعيداً عن الصنعة، بريئاً من التعقيد، غنياً عن التأويل. فقال الجاحظ: وهذا تأويل قول الاصمعي: البليغ من طبق المفصل، وأغناك عن المفسر.

ومن هذا يتضح أن مفهوم البلاغة في العصر الجاهلي ما كان منصرفاً إلى مجرد الوصول والانتهاه وانصرافه إلى الحدق والمهارة والاصابة والاجادة والتمكن وما إليها.

ولقد ظلت هذه المعاني بارزة فيما وصف بالبلاغة أو وصف به من أقوال. ولم يرد لفظ البلاغة في القرآن الكريم، ولا في الحايث النبوي الشريف مع ورود غير قليل من مشتقات المادة اللغوية: الباء واللام والغين فيهما. فقد نعت القول بالبليغ في قوله تعالى: «فأعرض عنهم، وعظهم، وقل لهم - في أنفسهم - قولاً بليغاً» [٦٣ النساء ٤].

ولم يذكر الطبري ما قاله المفسرون الأوائل فيه (٢٨) غير أن الزمخشري

(٢٦) نفسه ٢٧٥/١.

(٢٧) نفسه ١٠٦/١.

(٢٨) تفسيره: ٥/٠٩٩.

قال : أي قل لهم قولاً بايعاً في أنفسهم ، مؤثراً في قلوبهم ، يفتنون به اغتصاباً ، ويستشعرون منه الخوف استشعاراً (٢٩) .

فالقول البليغ : هو القول المتميز بنصجه واكتماله وفتاده ، المؤثر في ساعده وقارنه . وقد وفنا في التحقيق اللغوي على ما ذهب إليه الراغب الاصفهاني قبله في القول البليغ (٣٠) . ولا يخرج عن هذا المعنى لفظ البليغ الورداني قوله صلى الله عليه وسلم : ان الله يبغض الرجل البليغ الذي يتخلل بلسانه تخلل البقرة بلسانها (٣١) فالبغض لمخيلة البليغ وزهوه وتبهه وليّ اسانه ، وليس لبلاغته ذاتها . وقال علي بن ابي طالب - ٤٠ هـ رضي الله عنه :

« البلاغة ايضاح الملامبات ، وكشف عوار الجهالات ، بأسهل ما يكون من العبارات » (٣٢) .

ونقل الجاحظ أن معاوية بن ابي سفيان ٦٠ هـ - رضي الله عنه كان قد سأل صحار بن عياش العبدي - ٤٠ هـ - قائلاً : ما هذه البلاغة التي فيكم ؟ قال : شيء تجيش به صدورنا ، فتتذنه على ألسنتنا . قال معاوية : ما تعدون البلاغة فيكم ؟ قال : الايجاز . قال له : وما الايجاز ؟ قال : أن تجيب فلا تبطل . قال معاوية : أو كذلك تقول يا صحار ؟ قال : أقلني يا أمير يا أمير المؤمنين ، الا تبطل ولا تخطى* (٣٣) .

(٢٩) الكشاف : ٣٧١/١ .

(٣٠) انظره في هذا البحث : ص : ٢٦٢ .

(٣١) الامثال لابن احمد العسكري كما في الكنز ٣٢١/٣ ، سنن ابي داود ٥٩٧/٢ سنن الترمذي ١٤١/٥ ، سنن احمد ١٦٥/٢ ، ١٨٧ ، الترغيب ٣١٦/٥ ، الشكاه ٥٧٤/٢ ، الفائق ٢٣٤/٣ ، النهاية ٧٣/٢ ، مجمع الزوائد ١١٦/٨ ٢٦١/١٠ . وقد روي في قسم منها " يلب بلسانه كما تلب البقرة بلسانها " وفي قسم منها " البقرة مكان البقرة .

(٣٢) الصناعتين : ٥١ - ٥٢ .

(٣٣) البيان والتبيين : ٩٦/١ .

الدكتور محمد جابر فياض

فالبلاغة - عندهم - ايست الایجاز الذي نعهده من التعبير عن المعنى بأقل ما يمكن من الالفاظ فحسب ، وانما هي - فضلا عنه - من الاصابة ، واحكام القول مع حضور البديهة ، ألا تراه قال : ألا تبطنى ، ولا تخطىء ؟ وهذه الامور كلها داليل الحذق والمهارة ، والتمكن من الاصابة واحكام القول .
ومثل قول صحار ، أو قريب منه في قصر البلاغة على الایجاز ، قول عمرو بن العاص - ٤٣ هـ حين سأته معاوية قائلا : من « أبلغ الناس ؟ » قال : من اقتصر على الایجاز وتنكب الفضول « (٣٤) .

وقال الحسن بن علي - ٥٥٠ هـ : « البلاغة تقرب بعيد الحكمة بأسهل العبارة » (٣٥) ومثله قول محمد بن الحنفية - ٨١ هـ : البلاغة قول تضطر العقول الى فهمه بأسهل العبارة « (٣٦) .

وقال عبد الله بن عتبة - ٩٨ هـ : « البلاغة دنو المأخذ ، وقرع الخجة وقليل من كثير (٣٧) .

وقال عمر بن عبد العزيز - ١٠١ هـ : البليغ من اذا وجد كثيرا ملاءه ، واذا وجد قليلا كناه « (٣٨) . فعبير بهذا عن الحذق والتمكن .

ونقل ابو هلال العسكري قول محمد بن علي رضي الله عنهما : « البلاغة تفسير عسير الحكمة بأقرب الالفاظ » (٣٩) ونقل عنه - أيضا - قوله : « البلاغة قول منفتح في لطف » ، ونسره قائلا : فالمنفتح : المفهم ، والالطيف من الكلام ماتعطف به القلوب النافرة ، ويؤنس القلوب المستوحشة ، وتلين به العريكة الالية

(٣٤) مجالس ثعلب : ١٨٧/١ .

(٣٥) الصناعتين : ٥٢ .

(٣٦) نفسه : ١٢ .

(٣٧) نفسه : ١٦ ، الرسالة العذراء : ٤٦ .

(٣٨) الرسالة ، الموضع نفسه ١ .

(٣٩) الصناعتين : ٥٢ . وألفه أراد محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - ٨١١٤ .

المتعمية وتبلغ به الحاجة . وتقام به الحجة ، ، فتخلص نفسك من العيب ، وتلزم صاحبك الذنب من غير أن تهيجه وتقلقه ، وتستدعي غضبه ، وتستثير حفيظته ، (٤٠) .

وقيل للامام ابراهيم بن محمد - ١٣٢ هـ : « ما البلاغة ؟؟ قال : الجزالة والاطالة » (٤١) . وعقب ابن رشيقي القبرواني على هذا بقوله : « وهذا مذهب جماعة من الناس جلة ، وبه كان ابن العميد يقول في مشوره » (٤٢) .

وروي عنه الجاحظ قوله : « يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء افهام الناطق ، ولا يؤتى الناطق ، من سوء فهم السامع » (٤٣) . وعقب الجاحظ على هذا بقوله : « اما أنا فاستحسن هذا القول جداً » (٤٤) .

وقال عبد الحميد الكاتب - ١٣٢ هـ وقد سئل عن البلاغة : « هي ما رضىته الخاصة ، وقهمته العامة » (٤٥) . وقال : « لو كان الوحي يتزل على أحد بعد الانبياء فعلى بلغاء الكتاب » (٤٦) . وقال « خير الكلام ما كان لفظه فحلاً ، ومعناه بكراً » (٤٧) . وقال : « البلاغة تقرير المعنى في الافهام ، من اقرب وجوه الكلام » (٤٨) .

وقال خالد بن صفوان - ١٣٥ هـ - : « ليس البلاغة بخفة اللسان ، ولا

- (٤٠) نفسه : ٥١ .
 (٤١) العمدة : ٢٤٥/١ .
 (٤٢) الموضع نفسه .
 (٤٣) البيان والبيان : ٨٧/١ .
 (٤٤) الموضع نفسه .
 (٤٥) الاعجاز والايجاز : ١١١ .
 (٤٦) الموضع نفسه .
 (٤٧) الموضع نفسه .
 (٤٨) زهر الآداب : ١٢٧/١ .

الدكتور محمد جابر فياض

بكثرة الهذيان ، واكتنفاصابة المعنى ، والقرع بالحجة » (٤٩) . وقال ايضا :
« لا تكون بليغا حتى تكلم أمثك السوداء في الليلة الظلماء في الحاجة المهمة بما
تتكلم به في نادي قومك . وانما اللسان عضو ، اذا مرته مرن ، واذا تركته
كان كاليد تخشنها بالممارسة والبدن الذي تقويه برفع الحجر وما اشبهه ،
والرجل اذا تعودت المشي مشت (٥٠) وقال كذلك : « أبلغ الكلام ما لا يحتاج
الى كلام ، وأحسنه ما لم يكن بالبدوي المغرب ولا القروي المخدج ، الذي
صحت مباتيه ، وحننت معانيه ، ودار على السن القائلين ، وخف على آذان
السامعين ، ويزداد حسنا على مر السنين ، بتجلية الرواة ، وتنقية الرواة .

والكاتب المستحق اسم الكتابة ، والبلغ المحكوم له بالبلاغة ، من اذا
حاول صنعة كتاب ، سالت على قلمه عيون الكلام من يتابعها ، وظهرت
من معاندها ، وبدرت من مواطنها ، عن غير استكراه ، ولا اغصاب » (٥١)
وقال بشر بن خالد : « البلاغة التتريب من المعنى البعيا ، والتباعد عن خسيس
الكلام ، والدلالة بالقليل على الكثير » (٥٢) .

وقل لابن المقفع - ١٤٢ هـ : « ما البلاغة ؟ قال : قلة الحصر ، والجرأة على
البشر . قيل له : فما العي ؟ قال : الاطراق من غير فكرة ، والتنحنج من غير
علة » (٥٣) .

ونقل الجاحظ عن اسحاق بن حسان بن قوهي قوله : « لم يفسر البلاغة
تفسير ابن المقفع احد قط . سئل ما البلاغة ؟ قال : البلاغة اسم جامع لمعان

(٤٩) الرسالة المزراء : ٤٦ ، وفي المقف : ٢٦١/٢ " قيل لخالد بن صفوان ما البلاغة ؟ قال :

اصابة المعنى والتصد للحجة » .

(٥٠) المقف : ٢٦٩/٢ - ٢٧٠ .

(٥١) الرسالة المزراء : ٣٥ ٣٦ .

(٥٢) نفسه : ٤٦ .

(٥٣) المقف : ١٨٩/٤ - ١٩٠ .

ما يكون في الاشارة ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جوابا ،
ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون سجعاً وخطبا .
ومنها ما يكون رسائل . فعامه ما يكون من هذه الابواب الרוحي فيها والاشارة ،
والايجاز هو البلاغة . فأما الخطب بين السماطين ، وفي اصلاح ذات البين ،
فالاكثار في غير خطل ، والاطالة في غير امال .

وليكّن صدر كلامك دليلا على حاجتك ، كما ان خير آيات الشعر البيت
الذي اذا سمعت صدره ، عرفت قايته .

كأنه يقول : فرق بين صدر خطبة النكاح ، وبين صدر خطبة العيد ،
وخطبة الصلح ، وخطبة التراهب ، حتى يكون لكل فن من ذلك صدر يدل
على عجزه — فانه لاخير في كلام لايدل على معنك ، ويشير الى مغزائك ،
والى العمود الذي قصدت ، والعرض الذي نزعته .

قال : فقيل له : فان ملّ السامع الاطانة التي ذكرت أنها حق ذلك المرقف ؟
قال : اذا أعطيت كل مقام حقه ، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام
وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد
والمدو ، فانه لايرضيهما شيء ، وأما الجاهل فليست منه وليس منك ،
ورضا الناس شيء لاينال هـ (٥٤) .

فان المقنع يرى البلاغة الاجادة المتمثلة بمراعاة ما يقتضيه الحال ويتطلبه ،
في السكوت والاستماع ، والابتداء والجواب ، والايجاز والاطانة ، وغير
ذلك بما ذكره . وقد نص صراحة على إعطاء كل مقام حقه ومراعاة ما يجب
من سياسة ذلك المقام ، فالبلاغيون المتأخرون لم يأتوا باكثر من صياغة هذا
الذي ذكره أو اشار اليه في بلاغة الكلام خاصة .

الدكتور محمد جابر نياض

ومثل هذا أو قريب منه ما ذهب اليه عمرو بن عبيد - ١٤٤ هـ - وان نزع فيه منزعا آخر - حين سأله حفص بن سالم قائلا : ما البلاغة ؟ ؟ فقال : « ما بلغ بك الجنة ، وعدل بك عن النار ، وما ابصرك مواقع رشدك ، وعواقب غيك . قال : ليس هذا أريد . قال : من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع ، ومن لم يحسن الاستماع ، لم يحسن القول .

قال : ليس هذا أريد . قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « انا معشر الانبياء بكاه ، أي قليلو الكلام . ومنه قيل : رجل بكىء . وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله .

قال : ليس هذا أريد . قال : كانوا يخافون من فنتة القول ، ومن سقطات الكلام ، ما لا يخافون من فنتة السكوت ، ومن سقطات الصمت . قال : ليس هذا أريد . فقال له : فكأنك انما تريد تخير اللفظ ، في حسن الافهام ؟ قال : نعم .

قال : انك أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين ، وتخفيف المؤونة على المستمعين ، وترزين تلك المعاني في قلوب المريرين ، بالالفاظ المستحسنة في الآذان ، المقبولة عند الأذنان ، رغبة في سرعة استجابتهم ، ونفي الشواغل عن قلوبهم ، بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب واستوجبت على الله جزيل الثواب « (٥٥) فبلاغة القول عنده تخير اللفظ في حسن الافهام ، وفي ايضاحه لهذا القول من الفاظ الحسن والترزين ما فيه .

وقال المنصور - ١٥٨ هـ : « البلاغة والغنى اذا اجتماعا لامرئى أبطراه » (٥٦).

(٥٥) البيان والتبيين : ١١٤/١ .

(٥٦) المسامع : ١٦ .

وقال الخليل - ١٧٠ هـ : « البلاغة كلمة تكشف عن البغية » (٥٧) . وقال
ايضا : « البلاغة ما قرب طرفاه ، وبعد منتهاها » (٥٨) . وقال : « كل ما أدى
الى قضاء الحاجة فهو بلاغة ، فان استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقا ،
ولتلك الحال وفقا ، وآخر كلامك لأوله مشابها ، ومورده لمصدره موازنا ،
فافعل . واحرص أن تكون الكلامك متبهما وأن ظرف ، وانظلمك مستريا
وان لطف ، بمواتاة آلتك لك ، وتصرف ارادتك معك ، فافعل » (٥٩) .
وقوله هذا خير تلخيص لما كان ذكره ابن المقفع ، ان كان الخليل وقف عليه .
وقال المنفل الضبي - ١٧٨ هـ : « قلت لاعرابي منا : ما البلاغة ؟ قال
لي : الايجاز في غير عجز ، والاطناب في غير خطل » .

قال ابن الاعرابي : فقلت للمنفل : ما الايجاز عندك ؟ قال : حذف
الفضول وتقريب البعيد » (٦٠) . وهذا الذي ذهب اليه المنفل شبيه بالذي
ذهب اليه الخليل في قوله الاولين . وأشبه بهما منه قول خلف الاحمر - ١٨٠ هـ
تقريبا : « البلاغة لمحة دالة » (٦١) .

وكتب جعفر بن يحيى بن خالد - ١٨٦ هـ الى عمرو بن مسعدة : « اذا
كان الاكثار أبلغ ، كان الايجاز تقصيرا ، واذا كان الايجاز كافيا كان
الاكثار عيا » (٦٢) وقيل له : « ما البلاغة ؟ قال : التقريب من المعنى البعيد ،
والدلالة بالتقليل على الكثير » . (٦٣) .

(٥٧) المسدة : ٢٤٢/١ .

(٥٨) نفسه : ٢٤٥/١ .

(٥٩) الرسالة الغراء : ٤٨ .

(٦٠) البيان والتبيين : ٩٧/١ .

(٦١) المسدة : ٢٤٢/١ .

(٦٢) الموضع ذاته .

(٦٣) المقدم : ٤ / ١٩٨ .

الدكتور محمد جابر فياض

وسئل كثوم بن عمرو العتابي - ٢٠٨ هـ : ما البلاغة ؟ ؟ فقال : كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ، ولا حجة ، ولا استعانه فهو بليغ . فإن اردت اللسان الذي يروق الالسة ، ويفوق كل خطيب فاطهار ما غمض من الحق ، وتصوير الباطل في صورة الحق « (٦٤) .

وقال الجاحظ : « والعتابي حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ . لم يعن أن كل من أفهمنا - معاشر الموالدين والبلديين - قصده ومعناه بالكلام الملحون ، المعدول عن جهته ، المصروف عن حقه ، محكوم اه بالبلاغة (٦٥) . الملحون ، المعدول عن جهته ، المصروف عن حقه ، أنه محكوم اه بالبلاغة . وانما عنى العتابي افهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء (٦٥) . »

وضرب عددا من الامثلة التي لم يفهم منها العرب الفصحاء ما أريد بها لما فيها من اللحن واكرونها معدولة عن جهتها ، مصروفة عن قصدها ، منها قوله : « وقد روى أصحابنا أن رجلا من البلديين قال لأعرابي : كيف أهلك ؟ - قالها بكسر اللام - قال الاعرابي : صلبا ، لانه أجابه على فهمه ، ولم يعلم أنه أراد المسأنة عن اهله وعباله « (٦٦) . وأضاف قائلا :

« فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة والاكثة ، والخطأ والصواب ، والاغلاق والابانة ، والملحون والمرب ، كله سواء ، وكله بيانا ، وكيف يكون ذلك كله بيانا ، ولولا طول مخالطة السامع للعجم ، وسماعه للفساد من الكلام لما عرفه . ونحن لم نفهم عنه الا لانتص الذي فينا . وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلون على معاني هؤلاء

(٦٤) البيان والبيان : ١١٣/١ .

(٦٥) البيان والبيان : ١٦١/١ - ١٦٢ .

(٦٦) نفسه : ١١٣/١ .

بكلامهم كما لا يعرفون رطانة الرومي والصقلبي ، وان كان هذا الاسم انما يستحقونه بأننا نفهم عنهم كثيرا من حوائجهم فنحن قد نفهم بحممة الفرس كثيرا من حاجاته ، ونفهم بضياء السور كثيرا من ارادته . وكذلك الكلب والحمار والصبي الرضيع . (٦٧) .

وأخذ ابو هلال العسكري كل هذا الذي ذهب اليه الجاحظ في ايضاح قول العتابي بإيجاز من غير ما اشارة اليه (٦٨) .

وعقب الجاحظ على قول الشاعر :

الأرب خصم ذي فنون علوته وان كان ألوى يشبه الحق باطله

بقوله : فهذا هو معنى قول العتابي : « البلاغة اظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل في صورة الحق » (٦٩) . وروي ان العتابي قال : « البلاغة مد الكلام بمعانيه اذا قصر ، وحن التألف اذا طال » (٧٠) .

وجاء بصحيفة بشر بن المعتز — ٢١٠ هـ المشهورة ، ومنها قوله :

« . . . أن يكون لفظك رشيقا عذبا ، وفخما سهلا ، ويكون معنك ظاهرا مكشوفاً ، وقريبا معروفا ، اما عند الخاصة ، ان كنت للخاصة قصدت ، واما عند العامة ، ان كنت للعامة ، أردت .

والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة . وانما مدار الشرف على الصواب ، واخراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل بمقام من المقال .

(٦٧) نفسه : ١٦٢/١ .

(٦٨) الصناعين : ١٠ - ١١ .

(٦٩) البيان والتبيين : ٢٢٠/١ - .

(٧٠) زهر الاداب ١٢٧/١ .

الدكتور محمد جابر فياض

فإن امكانك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك ، واطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك ، الى أن تفهم العامة معاني الخاصة ، وتكسرهما الانفاظ الواسطة ، التي لا تطف عن الدماء ، ولا تجزو عن الاكفاء فأنت البليغ التام » (٧١) .

ونقل عن سهل بن هارون - ٢١٥ هـ قوله :

« اللسان البلغ والشعر الجيد لا يكادان يجتمعان في واحد ، واعر من ذلك نأ تجتمع بلاغة الشعر وبلاغة القلم » (٧٢) .

كما نقل عنه قوله : « بلاغة اللسان رفيق ، والعي خرق » (٧٣) .

وقال ابن الاعرابي - ٢٣١ هـ : « البلاغة التقرب من البغية ، ودلالة قليل على كثير » (٧٤) .

ولم يكنف الجاحظ - في مفهوم البلاغة بما نقله عن العرب مع كثرة ما نقله عنهم ، فجاء بأقوال غيرهم من الامم والاقوام ، فقال :

« .. قيل للفارسي : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل .

وقيل لليوناني : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الاطالة .

وقيل للهندي : ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الاشارة .

وقال بعض اهل الخند : جماع البلاغة البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة .

(٧١) البيان والتبيين : - ١٣٦/١ .

(٧٢) نزهة : - ٢٤٣/١ .

(٧٣) نزهة : - ٤٢/٢ .

(٧٤) السدة : ٢٤٦/١ .

ثم قال : ومن البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الانصاح الى الكناية ، اذا كان الانصاح أوعر طريقة . وربما كان الاضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك ، وأحق بالظفر .

وقال مرة : جماع البلاغة التماس حسن الموضع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلة الخرق بما التيس من المعاني أو غمض ، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر .

ثم قال : وزين ذلك كله ، وبهاؤه ، وحلاوته وسناؤه ، أن تكون الشائيل موزونة ، والالفاظ معدلة ، واللهجة ثقيلة ، فان جامع ذلك السن والسمت ، والجمال وطول الصمت ، فقد تم كل التمام ، وكمل كل الكمال ، (٧٥) .

ونقل عن «عمر - أبي الاشعث - أنه قال لبهلة الهندي : ما البلاغة عند أهل الهند ؟ قال بهلة : عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة ، اكن لا أحسن ترجمتها لك ، لم أعالج هذه الصناعة ، فأثني في نفسي بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها .

قال أبو الاشعث : فلتيت بتلك الصحيفة الترجمة ، فاذا فيها :
أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة . وذلك أن يكون الخطيب رابط الجاش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الامة بكلام الامة ، ولا الملوك بكلام السوقة . ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة . ولا يدقق المعاني كل التدقيق ، ولا يتقح الالفاظ كل التنقيح ، ولا يصفيها كل التصفية ، ولا يهذبها غاية التهذيب . ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما ، أو فيلسوفا عليما ، ومن قد تعرد حذف فضول الكلام ، واسقاط مشتركات

الدكتور محمد جابر نياض

الالفاظ ، وقد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة ، لا على جهة الاعتراض والتصيح ، وعلى وجه الاستطراف والتطرف .

قال : ومن علم حق المعنى ، أن يكون الاسم له طبعا ، وتلك الحال له وفقا ، ويكون الاسم لا فاضلا ولا مفضولا ، ولا مقصراً ولا مشتركا ولا مضمنا ويكون - مع ذلك - ذاكرالما عقد عليه أول كلامه ، ويكون تصفحه لمصدره في وزن تصفحه لمصدره ، ويكون لفظه موقفا ، ولحول تلك المقامات معاودا . ومدار الامر على الافهام كل قوم بمقدار طاقتهم ، والحمل عليهم على اقدار منازلهم . وأن تواتيه الآتية ، وتتصرف معه أدواته .

ويكون في التهمة لنفسه معتدلا ، وفي حسن الظن بها مقتصدا ، فانه ان تجاوز مقدار الحق في التهمة لنفسه ظلمها ، فأودعها ذلة المظلومين ، وان تجاوز الحق في مقدار حسن الظن بها آمنها ، فأودعها تهاون الآمنين . واكل ذلك مقدار من الشغل ، واكل شغل مقدار من الوهن ، واكل وهن مقدار من الجهل (٧٦) .

ونقل ايضا أنه قيل لرجل من الحكماء : ما جماع البلاغة ؟ قال : معرفة السليم من المعتل ، وفصل ما بين المضمن والمطلق ، وفرق بين المشترك والمفرد وما يتحمل التأويل من المنصوص المقيد (٧٧) .
غير أن الجاحظ الذي وقف على هذه الاقوال الكثيرة التي نقلها كان قد اعرب عن اشارة لقول لم يسم قائله ، فقال :

(٧٦) البيان والتبيين : - ١/٩٢ - ٩٣ .

(٧٧) البيان والتبيين : - ٢/١٠٤ .

وقال بعضهم - وهو من أحسن ما اجتنيناه ودوناه - لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة ، حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه الى سمعك ، اسبق من معناه الى قلبك (٧٨) .

والجاحظ صير في الكلام ناقده ، لم يكن ليختار هذا القول ويؤثره - وان لم يوقف الحسن عليه وحده - لولا ما رآه فيه من تجسيد لميزات الكلام البليغ . فاختصاص القلب فيه مقصود ، غير عفوي ، أريد به إبراز حلاوة الكلام واستباق اللفظ والمعنى ووصولهما سوياً - مع حرص كل منهما على الوصول قبل الآخر - ايماء ذكية للموازنة الدقيقة بينهما في الجودة والنشاذ والسرعة فالاسماع ، والافئدة لا تستقبل بسرعة الا ما جاد وراق وحسن ، وهل البلاغة غير هذه الجودة والحسن ، والحذق في اختيار الكلام وصياغته ؟ ! أوليس الجاحظ هو القائل في الشعر والموازنة بين اللفظ والمعنى :

« والمعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العجمي والعربي ، والبلوي ، والقروي والمدني وانما الشأن في اقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، فانما الشعر صناعة رضرب من النسيج وجنس من التصوير» وفي رواية (صياغة) «مكان (صناعة) رهي أدل على الحذق والمهارة من الصناعة وأولى بالسياق الذي وردت فيه . (٧٩) .
والجاحظ هو الذي وصف بلاغة ثمامة بن أشرس التي اعجبته ايما اعجاب بقول ثمامة نفسه في جعفر بن يحيى . فقال :

(٧٨) نزهة : - ١١٥/١ .

(٧٩) الميراث : - ١٣١/٢ - ١٣٢ .

الدكتور محمد جابر فياض

وقال ثمامة بن أشرس : كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ، وقد جمع الهدوء والتسهل ، والجزالة والحلاوة . وافهاما يغنيه عن الاعادة . ولو كان في الارض ، ناطق يستغنى بمنطقه عن الاشارة ، لاستغنى جعفر عن الاشارة ، كما استغنى عن الاعادة .

وقال مرة : « رأيت احدا كان لا يتحبس ، ولا يتوقف ، ولا يتلجلج ، ولا يتحنح ولا يرتقب انظما قد استدعاه من بعد ، ولا ياتمس التخلص الى معنى قد تعصى عليه طلبه ، اشد اقتدارا ، ولا أقل تكلفا من جعفر بن يحيى » (٨٠) .
فتمت الجاحظ قائلا : وهذه الصفات التي ذكرها ثمامة بن أشرس فوصف بها جعفر بن يحيى ، كان ثمامة بن أشرس قد انتظمها لنفسه ، واستولى عليها دون جميع أهل عصره . انه ما كان في زمانه قروي ، ولا بلدي كان بلغ من حسن الافهام ، مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج ، مع السلامة من التكلف ، ما كان بلغه .

وكان لفظه في وزن معناه ، ومعناه طبق لفظه ، ولم يكن لفظه الى سمعك بأسرع من معناه الى قلبك » (٨١) فاختم تعقيبه بما كان آثره .

وهو القائل : « أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب فانهم ، قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ، ولا ساقطا سوقيا » . . (٨٢) .

وفي فصل من صدر رسالته في (البلاغة والايجاز) جاء ما نصه :
« والبلاغة اصابة المعنى ، والقصد الى الحجة مع الايجاز ومعرفة الوصل من الوصل » (٨٣) .

(٨٠) البيان والتبيين : - ١٠٥/١ - ١٠٦ .

(٨١) نفسه : ١١١/١ .

(٨٢) البيان والتبيين : - ١٣٧/١ .

(٨٣) البلاغة والايجاز - في مجلة البلاغ - ٢٣ .

وأضاف فيها أن حسن البيان محمود ، وحسن الصمت حكيم ، وربما كان الإيجاز محمودا والاكثار مذموما . وربما رأيت الاكثار احمد من الإيجاز . واكل مذهب ووجه عند العاقل ، واكل مكان مقال ، واكل كلام جواب . مع أن الإيجاز أسهل مراما ، وأيسر مطلبا من الاطناب . ومن قدر على الكثير ، كان على القليل أقدر ، والتقليل للتخفيف ، والتطويل للتعريف ، والتكرار للتوكيد والاكثار للتشديد . . .

وأما المذموم من المقال فما دعا الى الملل ، وجاوز المقدار ، واشتمل على الاكثار وخرج عن مجرى العادة .

وكل شيء أفرط في طبعه ، وتجاوز مقدار وسعه ، عاد الى ضد طباعه فيتحول البارد حارا ، ويصير النافع ضارا ، كالصندل البارد ان أفرط في حكه عاد حارا ، وذييا ، كالثلج يطنئ قليله الحرارة ، وكثيره يحركها . وكذلك الترد لما أفرط قبحه ، وتناهت سماجته استملح واستظرف . والى هذا ذهب من عد الاكثار عيا والإيجاز بلاغة . (٨٤) .

ومهما يكن من شيء أن اقول الذي آثره ابن المدبر والجرجاني بعد ذلك كما سنقف عليه عندهما (٨٥) .

ولقد سئل الكندي - ٢٥٨ هـ عن البلاغة فقال : ركنها اللفظ وهو على ثلاثة أنواع : فنوع لاتعرفه العامة ولا تتكلم به ، ونوع تعرفه وتتكلم به ، ونوع تعرفه ولا تتكلم به وهو احمدها (٨٦) .

وعقب ابن قتيبة - ٢٧٦ هـ على ما نقله من قول ابرويز اكاثبه : « واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول » بقوله : « يريد الإيجاز . وهذا ليس

(٨٤) نفسه - ٢٤ .

(٨٥) انظره في هذا البحث : ص ٢٧ ، ٤٢ .

(٨٦) المسد : - ٢٤٧/١ .

الدكتور محمد جابر فياض

بمحمود في كل موضع ، ولا بمختار في كل كتاب . بل لكل مقام مقال . ولو كان الإيجاز محمود في كل الأحوال لجرده الله تعالى في القرآن . ولم يفعل الله ذلك ولكنه أطال تارة للتوكيد ، وحذف تارة للإيجاز ، وكرر تارة للافهام . . . (٨٧) .

ونقل ابن المدبر - ٢٧٩ هـ قول « أنوشروان لبزر جمهر : متى يكون الصبي بليغا ؟ ؟ فقال : اذا وصف بليغا » (٨٨) .

وكتب رسالة في صفة الكتابة تشبه الى حد ما صحيفة بشر بن المعتمر أودعها كثيرا مما وقف عليه من أقوال في الفصاحة والبلاغة ، وصنعة الكتابة ومتطلباتها ، قال في مقدمتها : « . سأنتني أن أقف بك على وزن عدوية اللفظ وحلاوته ، وحدود فخامة المعنى وجزالته ، ورشاقة نظم الكتاب ومشكلة سرده ، وحسن افتتاحه وختمه ، وانتهاء فصوله ، واعتدال وصوله ، من الزلل وبعدها عن الخطل ، ومتى يكون الكاتب مستحفا اسم الكتابة ، والبلغ كلما له معاني البلاغة في اشارته واستعارته . . . » (٨٩) .

وانتهى في البلاغة الى ما اختاره الجاحظ وآثره فيها من اقوال . فقال : « . . . واكن سياسته « الكلام » - صعبة ، وتأليفه شديد الاعلى جهاذته وفرسانه وامراء الكلام ، يصرفونه كيف شاؤوا . ولا يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، لا يكون اللفظ اسبق الى الاسماع من معناه الى القارب » (٩٠) .

وقال أبو العيناء - ٢٨٢ هـ في البليغ : « من اجترأ بانقليل عن الكثير وقرب البعيد اذا شاء ، وبعد القريب ، واخفى الظاهر ، واظهر الخفي » (٩١) .

(٨٧) أدب الكاتب : - ١٥ - ١٦ .

(٨٨ - ٨٩) الرسالة المراء ٤٦ .

(٩٠) ٣٩ .

(٩١) السدة : - ٢٤٦/١ .

وقال المبرد - ٢٨٦ هـ : « ان من حق البلاغة احاطة القول بالمعنى واختيار الكلام ، وحنن التلسم ، حتى تكون الكلمة مقاربة اختها ، ومعاضة شكائها ، وأن تقرب البعيد ، وتحذف منها الفضول . . . »

فان استوى هذا في الكلام المنشور ، والكلام المرصوف المسمى شعرا فلم يفضل احد التسمين صاحبه ، فصاحب الكلام المرصوف أحمد ، لانه أتى بمثل ما أتى به صاحبه ، وزاد وزنا وقافية ، والوزن يحمل على الضرورة ، والقافية تضطر الى الحيلة .

وبقيت بينهما واحدة ، ليست مما توجد بعد استماع الكلام منهما ، ولكن يرجع اليهما عند قولهما ، فينظر أيهما أشد على الكلام اقتدارا واكثر تمحيا ، وأقل معاناة ، وأبطأ معاصرة ، فيعلم أنه المقدم هـ (٩٢) .

ووازن بين قوله صلى الله عليه وسلم : « كفى بالسلامة داء » ومثله من أقوال شعرية ونثرية وقال : « فانظر الى هذا الكلام الذي لا زيادة فيه ولا نقصان ، لا يطول المعنى ولا يقصر عنه ، وانظر الى فخامته وجزالته يقول : كفى بالسلامة داء . فأى كلام أوعظ ، أو زجر في القلب أوقر ؟ ان هذا الكلام لبجل عن أن يبلغه وصف ، أو يحيط بكنهه قول هـ (٩٣) وقال ابن المعتز - ٢٩٦ هـ : « البلاغة يلرغ المعنى ، ولما يطل سفر الكلام هـ (٩٤) .

وغير خاف أن هذه الاقوال وغيرها كانت قد أوضحت مفهوم البلاغة ايضاها تاما وان لم تكن بصياغة حد جامع مانع لها .

(٩٢) البلاغة : - ٥٩ - ٦٠ .

(٩٣) نفسه : - ٦٦ .

(٩٤) العمدة : - ٢٤٦/١ ، النشيل والمعاصرة - ١٥٨ وفيه : أن تبلغ المعنى ولم يطل سفر الكلام .

الدكتور محمد جابر فياض

والغريب أن يضيف اسحاق بن ودب - ٣٣٧ هـ الى قول الميرد (فصاحة اللسان) ليجعل منه حدا للبلاغة ، وكان كل من سبقه لم يفتن اليه فيقول ه وقد ذكر الناس البلاغة ، ووصفوها بأوصاف لم تشتمل على حدها ، وذكر الجاحظ كثيرا مما وصفت به ، وكل وصف منها يفصر عن الاحاطة بحدها . وحدها عندنا : القول المحيط بالمعنى المقصود ، مع اختيار الكلام ، وحسن النظام ، وفصاحة اللسان .

وانما اضيف الى الاحاطة بالمعنى اختيار الكلام ، لان العامي قد يحيط قواه بمعناه الذي يريد ، الا أنه بكلام مردول من كلام امثاله ، فلا يكون موصوفا بالبلاغة .

وزدنا فصاحة اللسان لان الاعجمي والامحان قد يبلغان مرادهما بقولهما فلا يكرونان موصوفين بالبلاغة .

وزدنا حسن النظام لانه قد يتكلم النصيح بالكلام الحسن ، الآتي على المعنى ولا يحسن ترتيب الناطه ، وتصير كل واحدة مع ما يشاكلها ، فلا يقع ذلك مرقعه ه (٩٥) .

مع أن الميرد قبله بنصف قرن او يزيد كان قد قال : ان من حق البلاغة احاطة القول بالمعنى ، واختيار الكلام ، وحسن النظم . فليس له فيه غير فصاحة اللسان ، التي هي من قبيل تحصيل الحاصل ، لما ذهب أي من المتحدثين عن البلاغة الى أن غير النصيح يمكن ان يكون بليغا ، وقد نبه الى هذا الجاحظ في ايضاحه لما عناه المتأبى بقراه : كل من أفهمك حاجته فهو بليغ (٩٦) .

(٩٥) البرهان - ١٦٣ .

(٩٦) انظر في هذا البحث - ١٩ - ٢٠ .

ومهما يكن من شئى^٩ فان قوله هذا انما يبرز لنا عناية قسم من البلاغاء والبلاغيين بالحدود والتعريفات في وقت مبكر خلافا لما كنا نعهده .

وقال الرماني - ٣٨٦ هـ :

« . . . وليست البلاغة افهام المعنى لانه قد يفهم المعنى متكلمان احدهما ببلغ والآخر عيبى ، ولا البلاغة ايضا بتحقيق اللفظ على المعنى ، لانه قد يحتمى اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ، ونافر متكلف .

وانما البلاغة ايصال المعنى الى القلب في أحسن صورة من اللفظ . فأعلاها طبقة - في الحسن - بلاغة القرآن ، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كاعجاز الشعر المفحم ، فهذا معجز للمفحم خاصة ، كما ان ذلك معجز للكافة هـ (٩٧) .

وقال الخطابي - ٣٨٨ هـ :

« . . . فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائر الطلق الرسل . وهذه اقسام الكلام المحدرد ، دون المهجين المذموم واعلم ان القرآن انما صار معجزا لانه جاء بأفصح الالفاظ في احسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني

ثم اعلم ان عمود هذه البلاغة التي تجمع لما هذه الصفات ، هو وضع كل نوع من الالفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الاخص الاشكل به . . .

ولم تقتصر فيما اعتمدنا من البلاغة لاعجاز القرآن ، على مفرد الالفاظ التي منها يتركب الكلام ، دون ما يتغير منه من ودائه التي هي معانيه ، وملابسه التي هي نظوم تأليفه . . . هـ (٩٨) .

(٩٧) النكت : - ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن - ٦٩ .

(٩٨) بيان اعجاز القرآن : - ضمن الرسائل ذاتها - ٢٢ - ٣٢ .

الدكتور محمد جابر نياض

وقال ابو هلال العسكري - ٣٩٥ هـ : البلاغة من قولهم : بلغت الغاية اذا انتهت اليها ، وبلغتها غيرى . وبلغ الشئ : متناه . والمبالغة في الشئ : الانتهاء الى غايته .

فسميت البلاغة بلاغة ، لانها تنهي المعنى الى قلب السامع فيفهمه . وسميت البلغة بلغة لانك تتبلغ بها ، فتنتهي بك الى ما فوقها ، وهي البلاغ ايضا . ويقال الدنيا بلاغ : لانها تؤدبك الى الآخرة . والبلاغ ايضا : التبليغ ، في قول الله عز وجل : « هذا بلاغ للناس » أى تبليغ ويقال : بلغ الرجل بلاغة ، اذا صار بليغا ، كما يقال : نبل نبالة ، اذا صار نبيلاً . وكلام بليغ وبلغ - بالفتح - كما يقال : وجيز ووجز ، ورجل بلغ - بالكسر - يبلغ ما يريد ، وفي مثل لهم احمق بلغ . ويقال : أبلغت في الكلام اذا أتيت بالبلاغة فيه . كما تقول : أبرحت اذا أتيت بالبرحاء ، وهو الامر الجسيم .

والبلاغة من صفة الكلام لا من صفة المتكلم . فلهذا لايجوز أن يسمى الله جل وعز بأنه بليغ ، اذ لايجوز أن يوصف بصفة كان موضوعها الكلام . وتسميتنا المتكلم بأنه بليغ توسع . وحقيقته أن كلامه بليغ ، كما تقول : فلان رجل محكم ، وتعني أن افعاله محكمة . قال الله تعالى : « حكمة بالغة » فجعل البلاغة من صفة الحكمة ، ولم يجعلها من صفة الحكيم ، الا أن كثرة الاستعمال ، جعلت تسمية المتكلم بأنه بليغ كالحقيقة ، كما انها جعلت تسمية المزايدة راوية كالحقيقة ، وكان الراوية حامل المزايدة ، وهو العبر وما يجري مجراه .

واذا كان الامر على هذا فالنصاحة والبلاغة ترجعان الى معنى واحد ، وان اختلف أصلهما ، لان كل واحد منهما انما هو الابانة عن المعنى والاظهار له . . .

وقد اضطرب أبو هلال أيما اضطرب في التمييز بين البلاغة والنصاحة أو مقارنتهما ببعضهما فهو بعد أن أرجعهما إلى معنى واحد مع اختلاف أصليهما أشار إلى اختلافهما فقال : « فعلى هذا تكرن النصاحة والبلاغة مختلفتين ، وذلك أن النصاحة تمام آفة البيان ، فهي مقصورة على اللفظ ، لأن الآفة تتعلق باللفظ دون المعنى ، والبلاغة إنما هي انتهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى .

ومن الدليل أن النصاحة تتضمن اللفظ ، والبلاغة تتناول المعنى ، أن البيغاء يسمى فصيحاً ولا يسمى بليغاً ، إذ هو مقيم الحروف ، وليس له قصد إلى المعنى الذي يؤديه . وقد يجوز مع هذا أن يسمى الكلام الواحد فصيحاً بليغاً ، إذا كان واضح المعنى ، سهل اللفظ ، جيد السبك ، غير مستكره ولا فج ، ولا متكلف ونخم . ولا يمنع من أحد الإسمين شيء لما فيه من إيضاح المعنى وتقويم الحروف .

وشهدت قوما يذهبون إلى أن الكلام لا يسمى فصيحاً ، حتى يجمع مع هذه النعوت فخامة وشدة وجزالة

وقالوا : وإذا كان الكلام يجمع نعوت الجودة ، ولم يكن فيه فخامة وفضل جزالة سمي بليغاً ولم يسم فصيحاً (٩٩) . وهذا الذي انتهى إليه غريب وأغرب من غريب بعد الذي قاله في نصاحة البيغاء ، واختصاص النصاحة بأقامة الحروف أو حصرها بها ، وجعل النصاحة بعد هذا أخص من البلاغة ، وأعلى منها مرتبة . وهو ما لم تقف عليه عند غيره ، ولا يعفيه أنه في هذا ناقل ، لكرته لم يسم هؤلاء الذين نقل عنهم ، ولم يعقب على قولهم بشيء ، غير ما مثل به من نصوص لاشك في فصاحتها وبلاغتها فقال : « وأنشدنا أبو أحمد عن أبي بكر الصولي لأبراهيم بن العباس :

الدكتور محمد جابر فياض

تمر الصبا صفحا بساكنة الغضا ويصدع قلبي أن يهب هبوبها
 قريية عهد بالحبيب وانما هوى كل نفس حيث حل حبيبها
 فالبيت الاول فصيح وبلغ ، والبيت الثاني بليغ وليس بفصيح . واستدلوا
 على صحة هذا المذهب بقول العاص بن عدي : الشجاعة قلب ركين ،
 والفصاحة لسان رزين . واللسان هاهنا : الكلام ، والرزين : الذي فيه
 فخامة وجزالة . (١٠٠) مع ان البيت الثاني لا يقل فصاحة عن البيت الاول ،
 وورقته لا تخرجه عن الفصاحة والا اكان كل كلام رقيق غير فصيح ، فلا
 أدري كيف يأتي بمثل هذا الرأي الفج ويعرضه ، ويسكت عنه ، من غير
 أن يعقب عليه بشيء ، مع انه خصص الفصول الثلاثة الاولى من كتابه
 للحديث عن البلاغة والفصاحة ، الاول : « في الابانة عن موضوع البلاغة
 في اللغة ، وما يجري معه من تصريف لفظها ، والقول في الفصاحة وما
 يتشعب منه » (١٠١) . والثاني : « في الابانة عن حد البلاغة » (١٠٢) .
 والثالث « وهو القول في تفسير ما جاء عن الحكمة في حدود البلاغة . (١٠٣) »
 فقال في الابانة عن حد البلاغة : « فنقول : البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب
 السامع ، ، فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك ، مع صورة مقبولة ومعرض
 حسن .

وانما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطا في البلاغة ، لان الكلام
 اذا كانت عبارته رثة ، ومعرضه خلقا لم يسم بليغا ، وان كان مفهوم المعنى ،
 مكشوف المغزى . (١٠٤) وأوضح فيه قول العتابي بمثل ما أوضحه الجاحظ
 من قبل ، ان لم يكن هو اياه باكثر لفظه ومعناه (١٠٥) . واحتج للحد الذي
 ذكره قائلا :

(١٠٠) [نف : ٩ .

(١٠١) ، (١٠٢) ، (١٠٣) : الصناعتين : ٦ ، ١٠ ، ١٤ .

(١٠٤) [نف : ١٠ . (١٠٥) نف : ١٠ - ١١ .

« وما يؤيد ما قلنا من أن البلاغة إنما هي إيضاح المعنى وتحسين اللفظ قول بعض الحكماء : البلاغة تصحيح الاقسام ، واختيار الكلام الى غير ذلك مما سنذكره ونفسره في هذا الباب ان شاء الله .

وقال محمد بن الحنفية رضي الله عنه : البلاغة قول تضطر العقول الى فهمه بأسهل العبارة « فقوله : تضطر العقول الى فهمه عبارة عن إيضاح المعنى وقوله بأسهل العبارة تشبيه على تسهيل اللفظ وترك تنقيحه » . (١٠٦)

وأكد في الفصل الثالث ما ذكره من حدها في الفصل الثاني وأورد أقوالا غير قليلة فيها وتولى شرحها والتمثيل لها مع ما في طائفة منها من اطناب فجاء هذا الفصل أطول النصول الثلاثة .

واعلم من الانصاف أن نشير الى أنه لم يقصر الفصاحة أو البلاغة على الجزأة بل صرح في هذا الفصل ، بما كنا ننتظر أن يصرح به هناك اثر القول الذي ساقه . فقال هنا : « وابلغ من هذه المنزلة ، أن يكون في قوة صائغ الكلام ، أن يأتي مرة بالجزل وأخرى بالسهل ، فليين اذا شاء ، ويشدد اذا أراد ، ومن هذا الوجه فضلوا جريرا على الفرزدق ، وأبا نواس على علي مسلم » (١٠٧)

كما انه أورد أقوالا لم أقف عليها عند من سبقه ، منها ما قد عزاه لقائله ، ومنها ما لم يعزه لقائل بعينه ، من هذه قوله :

« قال بعض الحكماء : البلاغة قول يسير ، يشتمل على معنى خطير . وهذا مثل قول الآخر : البلاغة حكمة تحت قول وجيز ، وقول الآخر : البلاغة علم كثير في قول يسير » . (١٠٨)

(١٠٦) نفسه : ١٢ .

(١٠٧) الصناعتين : ٢٤ .

(١٠٨) نفسه : ٣٧ .

الدكتور محمد جابر نياض

« وكما قال بعضهم : البلاغة صوب ، في سرعة جواب ، والعري اكثر في اذار ، وابطاء يردفه أخطاء » (١٠٩) .

« وقال العربي : البلاغة التقرب من المعنى البعيد ، والتباعد من حشو الكلام ، وقرب المأخذ ، وايجاز في صواب ، وقصد الى الحججة ، وحسن الاستمارة . »

ومثله قول الآخر : البلاغة تقريب ما بعد من الحكمة بأيسر الخطاب ... والرواية الصحيحة أن العربي قال : البلاغة التقرب من المعنى البعيد . ولكن رأيته في بعض أصولي كما ذكرته قبل فأوردته هاهنا وفسرته على ما رأيته في الاصل . « (١١٠) .

غير انه نقل عن جعفر بن يحيى في البلاغة قائلا :

« وقال جعفر بن يحيى : البلاغة أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويجلي عن مفزاك ، وتخرجه من الشركة ، ولا تستعين عليه بطول الفكرة ، ويكرن سليما من التكلف ، بعيدا من سوء الصنعة ، بريئا من التعقيد ، غنيا عن التأميل » (١١١) . وتولى تفسيره مع ان الجاحظ كان قد نقل قوله هذا في معنى البيان ، وليس في معنى البلاغة ، فقال : « وقال ثمامة : قلت لجعفر بن يحيى : ما البيان ؟ قال : « (١١٢) .

ومهما يكن من شيء ، فقد بذل الرجل جهدا فيما حد به البلاغة ، وجاء به من حدودها الكثيرة المعزوة لاصحابها ، غير المعزوة ، تفسير غير قابل مما قيل فيها وأوضح المراد بها ، حتى ان من الباحثين المعاصرين ، من آثر أن يبدأ الحديث عن البلاغة بحديثه ، محققا في هذا أو غير محقق فيه (١١٣) .

(١٠٩) نفسه : ٤٣ .

(١١٠) نفسه : ٤٧ - ٤٨ . (١١١) الصنائع : ٤٢ .

(١١٢) البيان والتبيين ١/١٠٦ . (١١٣) معجم البلاغة العربية ١/٩١ .

وقال عبد الكريم النهشلي القيرواني - ٤٠٣ هـ : « وانما سميت البلاغة بلاغة لا لبلاغ المتكلم حاجته بحسن إلهام السامع » (١١٤) .

وعنون الثعالبي - ٤٢٩ هـ الفصل الرابع والخمسين من كتابه المبهج بعنوان : « في ذكر البلاغة والبلغاء ، ووصف الكلام البارع » (١١٥) ، وسأقتصر اولا على ايراد النصوص ، التي ذكر فيها ذكر البلاغة والبلغاء صراحة ، في هذا الفصل وغيره من فصول هذا الكتاب ، لقوله في مقدمته : « . . . وبعد فهذا كتاب عولت فيه على خواطري لا على دفاتري ، وعلى قولي لا على منقولي ، وعلى فكري لا على ذكري . وجلوته في معرض المبتدع المخترع ، لا المبتذل المقترع . . » (١١٦) ، وألحق بها بعد ذلك ، النصوص التي وردت في كتبه الاخرى . فجاء في نصوص الفصل قوله : « أبلغ الكلام ما حسن ايجازه ، وقل مجازه ، وكثر إعجازه ، وناسبت صدوره أعجازه . البليغ من اذا رمى هدف البلاغة أصاب ، واذا استدر سحاب الصواب صاب .

البليغ من يبلغ الاغراض البعيدة بالالفاظ القريبة .

البليغ من يتجنب الإغراب في الإعراب ، ويترك التوعير والتعير في الخطاب .

الفاظ البليغ حالية ، وألفاظ العمي خالية .

كلام البليغ معسول ، وكلام العمي مفسول .

البليغ من فوائده موارد ، وشوارده ونوادره بوادر .

البليغ من يجتني من الالفاظ اسرارها ، ويجتني من المعاني ثمارها .

(١١٤) المتع : ٣١١ . (١١٥) المبهج : ٤٤ . (١١٦) نقه : ٢ .

الدكتور محمد جابر نياض

كلام البليغ في حلة من الحلاوة ، وحلية من الطلاوة .

كلام البليغ فصوص مصفوف .

كلام البليغ فصول مدبجة ، وكلام العبي فصول مشبجة .

البليغ اذا نطق طبق المفصل ، واذا كتب نسق الدر المنصل « (١١٧) وقال في فصل آخر منه :

« البليغ من اذا تكلم أضحك القطرب ، واذا خطب دفع الخطوب » (١١٨)

وجاء بأقوال في حديثه عن الكتاب والبلغاء في كتابه التمثيل والمحاضرة

تحت عنوان « من كتاب المبهج » مع أن منها ما لم يكن - كذلك - في المبهج

واكثرها لم يرد لما ذكر في المبهج بأي شكل من الاشكال . فمما ورد على

نحو مغاير لما في المبهج قوله : « البليغ من يحوك الكلام على حسب الاماني ،

ويخيط الالفاظ على قلود المعاني » (١١٩) .

مع انه في المبهج « الكاتب » بدلا من البليغ ، (١٢٠) ومثل ما في المبهج في

النسخة « أ » من كتاب التمثيل والمحاضرة ذاته ، كما ذكر محققه الفاضل ،

غير انه ثبت في المتن لفظ البليغ (١٢١) . ويكاد يكون كل ما جاء به من نصوص

هذا القسم - بعد هذا النص - ليس من كتاب المبهج لعدم وجودها فيه ،

ولان اكثرها جاءت معزوة لغيره خلافا لما صرح به في المبهج ، ولاختلاف

التهج الذي انتهجه هنا عما انتهجه في المبهج . فقد نسب الى أبي عبد الله

وزير المهدي أنه قال : « البلاغة ما فهمته العامة ، ورضيته الخاصة » (١٢٢) ،

(١١٧) المبهج : ٤٤ .

(١١٨) نفه : ٤٧ .

(١١٩) التمثيل والمحاضرة : ١٥٧ .

(١٢٠) انظر : المبهج .

(١٢١) التمثيل والمحاضرة : ١٥٧ .

(١٢٢) نفه : ١٥٨ .

وقال : قال غيره : « ابلغ الكلام ما سبق معناه لفظه » (١٢٣) . ونسب الى ابن المعتز أنه قال : « البلاغة أن تبلغ المعنى ، ولم تغل سفر الكلام » (١٢٤) . وجاء بعبارة : « خير الكلام ما كان لفظه فحلا ، ومعناه بكرا » (١٢٥) مغفلة ، وكذلك العبارة : « البلاغة ما صعب على التعاطي ، وسهل على الفطنة » (١٢٦) .

والذي يبدو لي أن الثعالبي لم يرد بقوله « من كتاب الميهج » غير الاقوال الثلاثة الاولى التي جاءت بين قوله هذا والبيتين اللذين عزاها الى أبي الفتح وتنبأ للمحقق الفاضل أنها جميعا من كتاب الميهج (١٢٧) . ومهما يكن من شيء فإن مقاله اكثر مما نقله ، وان لم يكن يرمي في الذي قاله الى وضع حد جامع مانع بقدر ما أراده من صياغة الافكار ، والمفاهيم التي وقف عليها وتمثلها من أقوال غيره ، والافتتان في صياغتها ، افتنانا يعرب عن مكانة البلاغة ونفاستها .

ولقد خصص ابن رشيح القيرواني - ٤٥٦ هـ بابا للبلاغة ، جاء فيه بكثير مما قيل فيها ، ونسوبا وغير منسوب ، ومما جاء فيه قوله :

« . . . وسئل بعض البلغاء : ما البلاغة ؟ فقال : قليل يفهم ، وكثير يسأم .

وقال آخر : البلاغة اجاعة اللفظ ، واشباع المعنى .

وسئل آخر فقال : معان كثيرة ، في الفاظ قليلة .

وقيل لاحدهم : ما البلاغة ؟ فقال : اصابة المعنى وحسن الايجاز .

(١٢٣) الموضع نفسه . (١٢٤) الموضع نفسه .

(١٢٥) الموضع نفسه ، مع ان الثعالبي نفسه كان قد عزا ال عبد الحميد الكاتب في الامعجاز والايجاز : ١١١ .

(١٢٦) الموضع نفسه . (١٢٧) : نفسه ١٥٧ .

الدكتور محمد جابر نياض

وسئل بعض الاعراب : من ابلغ الناس ؟ فقال : اسهلهم لفظا ،
 وأحسنهم بديهة » (١٢٨) .
 وقال : « وقيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ فقال : ابلاغ المتكلم حاجته
 بحسن افهام السامع ، ولذلك سميت بلاغة » (١٢٩) .
 وقال آخر : البلاغة أن تفهم المخاطب بقدر فهمه ، من غير تعب عليك .
 وقال آخر : البلاغة معرفة الفصل من الوصل .
 وقيل : البلاغة حسن العبارة مع صحة الدلالة .
 وقيل : البلاغة أن يكون أول كلامك يدل على آخره ، وآخره يرتبط
 بأوله .

وقيل : البلاغة القوة على البيان ، مع حسن النظام .

.....

وقالوا : البلاغة ضد العمى ، والعمى : العجز عن البيان

.....

وقيل لبعض الجلة : ما البلاغة ؟ فقال : تقصير الطويل ، وتطوير التخصير .
 - يعني بذلك القدرة على الكلام » (١٣٠) .

ونقل عن عبد الله بن محمد بن جميل المعروف بالباحث :

« البلاغة التفهم والافهام ، وكشف المعاني بالكلام ، ومعرفة الاعراب ،
 والاتساع في اللفظ ، والسداد في النظم ، والمعرفة بالقصد ، والبيان في الاداء ،

(١٢٨) السنة : ٢٤٢/١ .

(١٢٩) نفسه : ٢٤٤/١ . وهو لعبدالكريم النهشل . انظر : المنح له - ٣١١ ، وهذا البحث :
 ص ٢٩٤ .

(١٣٠) نفسه : ٢٤٥/١ .

وصواب الاشارة ، وايضاح الدلالة ، والمعرفة بالقول ، والاكتفاء بالاختصار عن الاكثار ، وامضاء العزم على حكومة الاختيار .

قال : وكل هذه الابواب محتاج بعضها الى بعض ، كحاجة بعض أعضاء البدن الى بعض ، لاغنى لفضيلة أحدهما عن الآخر . فمن أحاط معرفة بهذه الخصال فقد كمل كمال ، ومن شذ عنه بعضها لم يبعد عن النقص بما اجتمع فيه منها .

وقال : البلاغة تخير اللفظ في حسن الافهام . (١٣١) .

واختتم الباب بقوله : « وقد تكرر في هذا الباب من أقاويل العلماء ما لم يخف عني ولا اغفلته ، اكن اغتفرت ذلك لاختلاف العبارات . ومدار هذا الباب كله على ان البلاغة : وضع الكلام موضعه من طول أو ايجاز مع حسن العبارة .

ومن جيد ما حفظته قول بعضهم : البلاغة شد الكلام معانيه وان قصر ، وحسن التأليف وان طال (١٣٢) . هذا فضلا عن الاقوال الكثيرة التي جاء بها منسوبة الى اصحابها وأخذت اماكنها في هذا البحث بحسب وفياتهم ، ومنها ما أخذته عن الكتب التي سبقته وعاصرتة ، ومنها ما انفرد بإيرادها مع قدمها .

ولد بلغ من كثرة ما قيل في البلاغة أن الاقول في وصفها على السنة ذوي الصناعات المختلفة فقال الحصري - ٤٥٣ هـ تحت عنوان : « أوصاف بليغة في البلاغات على السنة أقوام من أهل الصناعات :

(١٣١) العبد : ٢٤٧/١ .

(١٣٢) نفسه : ٢٥٠/١ . وقد انفرد الحصري بعزو القول الى المتأني . انظر : زهر الآداب

١٣٧/١ ، وهذا البحث : ص ٢٩٩ .

الدكتور محمد جابر نياض

تجمع قوم من أهل الصناعات فوصفوا بلاغاتهم من طريق صناعاتهم وذكر ما قاله الجوهري ، والمطار ، والصانع ، والصيرفي ، والحداد ، والتجار ، والنجاد والمائح ، والخياط ، والصباغ ، والحائك ، والبزاز ، والرئاض ، والجمال والمخث ، والخمار ، والفناعي ، والطبيب ، والكحال . ويكتفي والوقوف على ما ذكر فيه لفظ البلاغة وما اشتق من مادتها اللغوية صراحة كقول الخياط : البلاغة قميص . . فجربانه (هـ) البيان ، وجيبه المعركة ، وكماله الرجيزة ، ودخاريمه (هـ) الافهام ، ودروزه الحلاوة ولايس جسده اللفظ ، وروحه المعنى وقال الجمال : البليغ من أخذ بخطام كلامه ، فأناخه في مبرك المعنى ، ثم جعل الاختصار له عقلا ، والايجاز له منجلا ، فلم يند عن الآذان ولم يشذ عن الاذهان

وقال الخمار : أبلغ الكلام ما طبخته ، راجل العلم ، وصفاه راووق (هـ) التهم ، وضمته دنان الحكمة ، فتمشت في المفاصل عدوبته ، وفي الافكار رفته ، وفي العقول حدته ثم قال : أجمعوا كلهم على أن أبلغ الكلام ما اذا أشرفت شمه ، انكشف لبه ، واذا صدقت أنواره اخضرت أحماؤه (١٣٣) .

وضمن كتابه فصلا آخر بعنوان « فقر في وصف البلاغة لغير واحد » (١٣٤) . ونسب فيه الى عبد الحميد بن يحيى قوله : « البلاغة تقرير المعنى في الافهام

• جربانه : جيبه . • دخاريمه : ما يرصل به للتوسمة . • الراووق : المصفاة .

(١٣٣) زهر الآداب ١/ ١٢٣ - ١٢٦ .

(١٣٤) نفسه ١/ ١٢٦ .

من اقرب وجوه الكلام « (١٣٥) وإلى العتابي انه قال : البلاغة مسد الكلام بمعانيه اذا قصر ، وحن التأليف اذا طال « وجاء باقوال أخرى غير قليلة .

كما انه أورد فصلا بعنوان « من كلام اهل العصر في صفة البلاغة والبلغاء « (١٣٦) من غير ما عزو ، صبره بما ذهب اليه الثعالبي ، لا الرماني كما وهم المحقق الفاضل وهو قوله : « أبلغ الكلام ما حسن ايجازه ، وقل مجازه ، وكثر إعجازه ، وتناسبت صدوره وأعجازه « (١٣٧) . ومما جاء في هذا الفصل قولهم :

« ليست البلاغة أن يطال عنان القلام أو سنانه ، أو يسطر رهان القدر وميدانه بل هي أن امد المراد بالفاظ اعيان ، ومعان أفراد ، من حيث لا تزيد على الحاجة ولا اختلال يفضي الى الناقاة .

البلاغة ميدان لا يقطع الا بسوابق الازهان ، ولا يسلك الا بصائر البيان .. « (١٣٨) .

ووقف ابن سنان الخفاجي على عدد من حدود البلاغة ، ومع عدم اقتناعه بصلاحيه أي منها لان يكون حدا لها فانه لم يحاول وضع الحد الذي يرتضيه فقال :

« وقد حد الناس البلاغة بحدود اذا حققت كانت كالرسوم والعلام ، وليست بالحدود الصحيحة ، فمن ذلك قول بعضهم : لمحة دابة . وهذا وصف من صفاتها فأما أن يكون حاصرا لها وحدا يحيط بها ، فليس ذلك بممكن ، لدخول الاشارة من غير كلام يتلفظ به تحت هذا الحد .

(١٣٥) نفه ١/١٢٧ . (١٣٦) نفه ١/١٢٨ .

(١٣٧) زهر الآداب : ١٢٨ ، وهو الثعالبي في البيج : ٤٤ .

(١٣٨) المرصع نفه .

الدكتور محمد جابر فياض

وكذا قال آخر: البلاغة معرفة الفصل من الرصل ، لان الانسان قد يكون عارفا بالفصل والرصل ، عالما بتمييز ما يختاره من تأليف غيره ، والحدود لا يحسن فيها التأول واقامة الماذير ، وغرابة الفاظ لاتدل على المقصود ، لانها مبنية على الكشف الواضح ، موضوعة لبيان الظاهر ، والغرض بها السلامة من الغامض ، فكيف يوقع من غامض بمثله .

وكذلك قول الآخر : البلاغة ان تصيب فلا تخطئ ، وتسرع فلا تبطل ، لان هذا يصلح اكل الصنائع ، وليس بمقصور على صناعة البلاغة وحدها . ثم انما سئل عن بيان الصواب في هذه الصناعة من الخطأ ، فجعل جواب السائل نفس سؤاله وبهذا يفسد قول من ادعى أن حدها الايجاز من غير عجز ، والاطناب من غير خطل .

وقول من قال : البلاغة اختيار الكلام ، وتصحيح الاقسام ، لان هذين انما سئلا عن حدين الكلام المرفوض من المختار ، ومتى يقع الاطناب مرضيا محمورا فأحال على ما السؤل فيه باق ، وعدم العلم به موجود وحاصل . وفي البلاغة أقوال كثيرة غير خارجة عن هذا النحو ، (١٣٩) .

وهذا الذي ذهب اليه صحيح ، غير ان قائل هذه الاقوال بانذات ، لم يذهب أي منهم الى أن ما قامه انما هو الحد الجاهع المانع للبلاغة . مع ان غير واحد ممن سبقه كان قد نص صراحة على أن ما قامه في البلاغة انما هو حدها ، الذي أراده لما وعال الفاظه ، ، كاسحاق بن وهب . مثلا . فأقوال هؤلاء أولى بماناقشته من الاقوال التي ناقشها . واتقد تجنب أن يتولى وضع حد لما .

أما الشيخ عبد القادر الجرجاني - ٤٧١ هـ فقد أوضح ما كان اثره الجاحظ من الاقوال في البلاغة من غير ما اشارة للجاحظ فقال :

« . . . فان قلت : فيجب - على هذا - أن يكون التعميد والتعمية ، وتعمد ما يكسب المعنى غموضاً مشرفاً له ، وزائداً في فضله ، وهذا خلاف ما عليه الناس ، ألا تراهم قالوا : خير الكلام ما كان معناه الى قلبك اسبق من لفظه الى سمعك ؟ فالجواب : اني لم ارد هذا الحد الزائد من الفكر والتعب ، وانما أردت القدر الذي يحتاج اليه في نحو قوله :
فان المسك بعض دم الغزال .

فانما ارادوا بقولهم : « ما كان معناه الى قلبك اسبق من لفظه الى سمعك » أن يجتهد المتكلم في ترتيب اللفظ وتهذيبه ، وصيانتها من كل ما أدخل بالدلالة ، وعاق دون الابانة ، ولم يريدوا أن خير الكلام ما كان غفلاً ، مثل ما يترجمه الصبيان ، ويتكلم به العامة في السوق .

وهذا ، وليس اذا كان الكلام في غاية البيان ، وعلى ابلغ ما يكون من الوضوح أغناك ذلك عن الفكرة ، اذا كان المعنى لطيفاً ، فان المعاني الشريفة اللطيفة لا بد فيها من بناء ثان على أول ، وردت الى سابق ... » (١٤٠) .
وخصص فصلاً للبلاغة والفصاحة ، غير انه لم يكن فيه معنياً بالانتهاء الى وضع حد لأي منهما ، وانما كان معنياً بوضع اليد على سبب المزية ، والفضل في الكلام البليغ أو النصيح ، فقال : « .. وفي تحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة وكل ما شاكل ذلك ، مما يعبر عن فضل بعض القائلين على بعض ، من حيث نطقوا وتكلموا ، وأخبروا السامعين عن الاغراض والمقاصد ، وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم ، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم .

ومن المعلوم أنه لا معنى لهذه العبارات ، وسائر ما يجري مجراها ، مما يفرده اللفظ بأتمت والصفة ، وينسب فيه الفضل والمزية اليه دون المعنى ،

الدكتور محمد جابر نياض

غير وصف الكلام بحسن الدلالة ، وتامها فيما له كانت دلالة ، ثم تبرجها في صورة هي أبهى وازين ، وآتق وأعجب ، وأحق أن تستولي على هوى النفس ، وتنال الحظ الاوفر من ميل القلوب وأولى بأن تطلق لسان الحمد ، وتطيل وغم الحاسد ، ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن يؤدي المعنى من الجهة التي هي اصح لتأديته ، ويختار اللفظ الذي هو أخص به ، واكشف عنه ، وأتم له وأحرى أن يكسبه نبلا ، ويظهر فيه مزية . . . (١٤١) .

وتحدث محمد بن حيدر البغدادي - ٧١٥ هـ عن البلاغة قائلا :

« والبلاغة ليست الفاظا فقط ، ولا معاني فحسب ، بل هي الفاظ يعبر بها عن معان ، ولكن ليس كما اتفق ، ولا كيفما وقع ، لان ذلك لو جرى هذا المجرى لكان اكثر الناس بليغا . . . ولهذا السبب قال بعضهم في وصف كاتب بليغ : ان أخذ شبر اكفاه ، وان تناول طوماراً ملاء . يذهب بهذا القول الى ان البليغ يحتاج في موضع الى الاطانة والاسهاب ، كما يحتاج في آخر الى الاختصار ، والايجاز ، الا ان اكثر ما عليه الناس في البلاغة : انها الاختصار ، وتقريب المعنى بالالفاظ القصار ، حتى اذا سئل بعض الناس عن البلاغة قال : هي لمحة دالة . مذهب العرب وعادتهم في العبارة ، فانهم يشيرون الى المعنى بأوحى اشارة ، ويستحبون ان تكون الالفاظ أقل من المعاني في المقدار والكثرة » (١٤٢) .

وحشر ابن منقلد - ٥٨٤ هـ كثيرا مما قيل في تجويد الكلام وتحسينه ، في باب التهذيب والترتيب من كتابه ، فقال : . . . واكن كلامك سليما من التكلف ، بريئا من التعسف ، وليحط لفظك بمعناك ، ويشتمل على مغزاك ، فان البلاغة سرعة جواب في صواب ، وأن تقول فلا تبطل ، وتصيب فلا

(١٤١) الدلائل : ٣٥ .

(١٤٢) قانون البلاغة - ٢٣ - ٢٤ .

تخطى ، ، والي اكارني اعدار ، وابطاء في اخطاء . . وقد اللفظ على قدر المعنى ، لازائداً ولا ناقصا ، كما قيل في مدح بعض الكتاب : كأن الفاظه قوالب معانيه . وقيل في آخر : كان اذا أخذ شبرا كفاء ، وان أخذ طومارا ملاه . واستعمل التطويل في مكانه ، والتقصير في مكانه . . واعلم أن خير الكلام المطمع المنع ، واحسنه ما قل ودل ، وجل ولم يعمل . (١٤٣) .
 وذهب الرازي ٦٠٦ هـ الى ان البلاغة : « بلوغ الرجل بعبارة كنه ما في قلبه ، ، مع الاحتراز عن الايجاز المخل والاطالة المملة . » (١٤٤) .

وقال السكاكي - ٦٢٦ هـ : « البلاغة هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وايراد انواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها . ولها - أعني البلاغة - طرفان أعلى وأسفل متباينان تباينا لا يترأى له ناراها ، وبينهما مراتب تكاد تفوت الحصر متفاوتة ، فمن الاسفل تبدىء البلاغة وهو القدر الذي اذا أنقص منه شيء ، التحق ذلك الكلام بما شبهناه في صدر الكتاب من اصوات الحيوانات ، ثم تأخذ في التزايد متصاعدة الى أن تبلغ حد الاعجاز ، وهو الطرف الاعلى ، وما يقترب منه » (١٤٥) .

وقال ابن الاثير - ٦٣٧ هـ : « اما البلاغة فان أصلها - في وضع اللغة - من الوصول والانتهاء ، يقال : بلغت المكان ، اذا انتهيت اليه ، وبلغ الشيء متناه وسمي الكلام بليغا من ذلك ، أى انه قد بلغ الاوصاف اللفظية والمعنوية . والبلاغة شاملة للاقناظ والمعاني ، وهي أخص من النصيحة ، كالانسان من الحيوان ، فكل انسان حيوان ، وليس كل حيوان انسانا . وكذلك يقال : كل كلام بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغا .

(١٤٤) نهاية الايجاز : - ٩ .

(١٤٣) البيهق - ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(١٤٥) المنهاج : - ٢٢٠ - ٢٢١ .

الدكتور محمد جابر فياض

ويفرق بينها وبين الفصاحة من وجه آخر غير الخاص والعام ، وهو أنها لا تكون الا في اللفظ والمعنى بشرط التركيب ، فان اللفظة لا يطلق عليها اسم البلاغة ويطلق عليها اسم الفصاحة ، اذ يوجد فيها الوصف المختص بالفصاحة وهو الحسن ، وأما البلاغة فلا يوجد فيها ، لخلوها من المعنى المفيد الذي ينتظم كلاماً (١٤٦) .

وقال الصفدي - ٧٦٤ هـ معقبا على هذا بقوله : (أقول : قد ادعى أن هذا الفارق الثاني غير الاول ، وهو هو بعينه ومينه . فانه أراد أولا : كل كلام فصيح يطلق عليه أنه بليغ ولا ينعكس (هـ) ومعنى هذا اذا قلنا :
• قنا نيك من ذكرى حبيب ومنزل •

فان هذا الكلام بليغ باعتبار ان معناه باغ في صوغ تركيبه الى حدله توفيه بتسام المراد ، وفصيح باعتبار بيان مفرداته وحسنها وعلويتها في السمع ، واذا فككنا هذا التركيب ، وأخذنا كل فرد من الفاظه ، كان كل فرد فصيحاً ولا يكون بليغاً لعدم التركيب في المعنى ، فكانت الفصاحة أعم من البلاغة لأنها وجدت في الافراد والتركيب ، وكانت البلاغة أخص لكونها لا تتناول إلا المركب فقط ، فحيث وجدت البلاغة مع عدوية الالفاظ وجدت الفصاحة ولا ينعكس . فصح أن البلاغة كالانسانية في خصوصها ، والفصاحة كالحيوانية في عمومها . وهذا المعنى موجود بعينه في الفارق الثاني الذي أبداه ، فإنه قال : ان البلاغة لا تكون الا في اللفظ والمعنى بشرط التركيب . . الى آخره (١٤٧) .

(١٤٦) المثل السائر : - ١١٨/١ - ١١٩ .

(هـ) خطأ الصفدي في نقل عبارة ابن الاثير هذه ، وسوابها : كل كلام بليغ فهو فصيح ، وليس كل فصيح بليغاً . وقد نقلها من سوابها في النص ذاته .

(١٤٧) نصرة السائر : - ٧٧ - ٧٨ .

والحق أن الحديث عن اللفظة المفردة وما يمكن أن تنعت به غير الحديث عن جملة الكلام المركب من تلك الالفاظ ومعناه ، وإن انتهى الحديث في كليهما الى عموم الفصاحة وخصوص البلاغة .

وأما ابن أبي الأصعب - ٦٥٤ هـ فقد ذهب - في حسن البيان - الى القول : « . . . وحقبة حسن البيان اخراج المعنى في أحسن الصور الموضحة له وايصاله الى فهم المخاطب بأقرب الطرق وأسهلها ، فإنه عين البلاغة .. » (١٤٨) .

وذهب التوخي - حوالي ٦٩٧ هـ في البلاغة مذهبا لا يخلو من غرابة بعد ذكره لمعناها اللغوي فقال : « . . . ومعنى البلاغة انتهاء الشيء الى غاية المطالبة . . . والبلاغة تتعاق بالمعنى فقط ، وهو ان يبلغ المعنى من نفس السامع مبلغه ، ومما يعين على ذلك الفصاحة في كلام العرب ، لا أن الفصاحة من أجزاء البلاغة ، فان الاعجمي اذا كتم الاعجمي ، فبلغ منه المعنى مبلغه كان كلامه بليغا ، ووصف بالبلاغة ، وليس من كلام العرب » (١٤٩) .

فإن أراد بقوله « وليس من كلام العرب » أن الاعجمي كالم صاحبه الاعجمي بلغتهما الاعجمية وبلغ منه ما بلغ فقد فاته أن الحديث عن البلاغة العربية لا بلاغة اللغات الاخرى ، وأن اراد انه كلم صاحبه بكلام عربي ، مشوب بالاعجمة التي عد معها انه ايس من كلام العرب ، فالمتحدث ببلغ ايضا في نظر صاحبه الاعجمي وامثاله لا غير ، فهو ايس ببلغ ولا فصيح في نظر العرب فلا وجه للاحتجاج به وبكلامه على العرب والعربية وبلاغتهما ، وقد أوضح الجاحظ من قبل ما كان قد عناه العنابي بقوله : كل من أفهمك حاجته

(١٤٨) بديع القرآن : - ٢٠٤ .

(١٤٩) الاقصى القريب : - ٢٢ .

الدكتور محمد جابر فياض

فهو بليغ . بل لقد ذهب أبو النجم العجلي الى وصف الحمار بالفصاحة في آذان الاتن مع انه أعجم عند الناس فقال :

« أعجم ، في آذانها فصيحاً » (١٥٠)

فلا ادري أي وجه للاحتجاج على العرب فيما اشترطوه في فصاحة كلامهم وببلاغته بكلام الاعجمي للاعجمي ، باقتهما أو بالعربية المشوبة للمحونة ؟؟
واقدم ذهب شهاب الدين محمود الحلبي - ٧٢٥ هـ الى مثل ما ذهب اليه الرازي في البلاغة فقال : « البلاغة أن يبلغ المتكلم بعبارة كنه مراده ، في ايجاز بلا اخلال ، واطالة من غير إملال » (١٥١) .

وذهب الى مثل هذا شهاب الدين التويرى - ٧٣٣ هـ من غير ما إشارة ، للاطالة وما اشترط فيها ، فقال : « نأما البلاغة فهي أن يبلغ الرجل بعبارة كنه ماني نفسه . ولا يسمى البليغ بليغاً الا اذا جمع المعنى الكثير في اللفظ القليل ، وهو المسمى ايجازاً . . . » (١٥٢) .

وأورد كثيراً مما قيل في البلاغة ، وأخطأ في نسبة غير قليل مما أورده منها منسوباً (١٥٣) .

ومع ان القزويني - ٧٣٩ هـ ملخص لفتح العلوم للسكاكي فقد ذهب الى غير ما انتهى اليه السكاكي حيث قال : « والبلاغة في الكلام مطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحته وهو مختلف ، فان مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام كل من التنكير والاطلاق والتقديم والذكر يباين مقام خلافه ، ومقام النصل يباين مقام الرصل ومقام الايجاز يباين مقام خلافه ، وكذا خطاب الذكي

(١٥٠) السان : - مادة / نصح .

(١٥١) حسن التوسل : - ١٠٣ .

(١٥٢) نهاية الارب : - ٤/٧ .

(١٥٣) نفسه : - ٦/٧ - ٩ .

مفهوم البلاغة

مع الشيء . واكمل كلمة مع صاحبها مقام . وارتفاع شأن الكلام في الحسن والتبول بمطابقتها للاعتبار المناسب ، وانحطاطه بعدمها ، فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب . فالبلاغة راجعة الى اللفظ باعتبار افادته المعنى بالتركيب وكثيرا ما يسمى ذلك فصاحة أيضا . ولها طرفان : أعلى وهو حد الاعجاز وما يقرب منه وأسفل وهو ما اذا غير الكلام عنه الى ما دونه ، التحق - عند البلغاء بأصوات الحيوانات وبينهما مراتب كثيرة ، وتتبعها وجوه آخر تورث الكلام . وفي المتكلم : ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ : نعلم أن كل بليغ فصيح ، ولا عكس ، وأن البلاغة مرجعها الى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد ، والى تمييز الفصيح من غيره . والثاني منه ما يبين في علم متن اللغة أو التصريف أو النحو ، وأن يدرك بالحسن ، وهو ما عدا التعقيد المعنوي .

وما يحترز به عن الاول علم المعاني ، وما يحترز به عن التعقيد المعنوي علم البيان وما يعرف به وجوه التحسين علم البيان ، والثلاثة علم البديع * (١٥٤) .

وقد أخذ اكثر الذين جاؤوا بعده بهذا الذي انتهى اليه التزويبي في حد البلاغة واقسامها ، وبخاصة أولئك الذين اتخذوا من تلخيصه أو ايضاحه قطب الرحي لمؤلفاتهم البلاغية . كبهاء الدين السبكي - ٧٧٣ هـ (١٥٥) وسعد الدين التفتازاني - ٧٩١ هـ (١٥٦) ، وأبي يعقوب المغربي - ١١١٠ هـ (١٥٧) ، ومحمد بن عرفة السروقي - ١١٣٠ هـ (١٥٨) وغيرهم من أصحاب الشروح

(١٥٤ - ١٥٨) انظر ايضاح التزويبي ، وعرس الانراج ، ومختصر السمد ، ومواهب الفتح وحاشية السوقي : - كلها ضمن شروح التلخيص - ١٢٢/١ - ١٢٧ ، وتلخيص التزويبي : ٢٣ - ٢٧ .

الدكتور محمد جابر فياض

لتلخيصه أو ايضاحه والمختصرات والحواشي والتعليقات التي دارت في
فلكهما .

غير ان العلوي - ٧٤٩ هـ جاء بشيء مما ذهب اليه ابن الاثير وما ذهب
اليه الرازي ، وما ذهب اليه غيرهما ، فقال : « اعلم ان البلاغة في وضع
اللغة هي الوصول الى الشيء والانتهاى اليه ، فيقال : بلغت البلد ابلغته بلوغا
والاسم منه البلاغة . وسمي الكلام بليغا ، لانه قد بلغ به جميع المحاسن كلها
في الفاظه ومعانيه . وهو في مصطلح النظار من علماء البيان ، عبارة عن الوصل
الى المعاني البديعة بالانفاظ الحسنة . وان شئت قلت : هي عبارة عن حسن
السبك مع جودة المعاني .

والمقصود من البلاغة هو وصول الانسان بعبارة كنه ما في قلبه ، مع
الاحتراز عن الايجاز المخل بالمعاني ، وعن الاطالة المملة للخواطر . . . واعلم
ان البلاغة مختصة بوقوعها في الكلم المركبة دون المفردة فلا يوصف الكلام
بكونه بليغا ، الا اذا جمع الامرين جمعا من حسن اللفظ ، وجودة المعنى
فمتى كان هكذا ، وصف بالبلاغة ، فان كان المعنى جزلا ، واللفظ غير
فصيح ، أو كان اللفظ فصيحاً وكان معناه ركيكاً ، فانه لا يوصف بالبلاغة
أصلاً . . . واعلم انه لاخلاف بين أهل التحقيق من علماء البيان ،
أن الكلام لا يوصف بكونه بليغا ، الا اذا حاز مع جزالة المعنى فصاحة الانفاظ
ولا يكون بليغا الا بمجموع الامرين كليهما . فقد صارت البلاغة وصفا
عارضاً للانفاظ والمعاني كما ترى : (١٥٩) .

واقصر ابن قيم الجوزية - ٧٥١ هـ على طائفة من النقول في البلاغة
واشتقاقها فقال : « قال علماء هذا الشأن : ان حد البلاغة : بلوغ الرجل
بعبارة كنهه ، في نفسه ، مع الاحتراز من الايجاز المخل والتطويل الممل .

وقال قوم : البلاغة ايصال المعنى الى القلب في احسن صورة من اللفظ .
وقال خالد بن صفوان : أبلغ الكلام ما قلت ألفاظه ، وكثرت معانيه
وخير الكلام ما شوق أوله الى سماع آخره .

وقال غيره : انما يستحق الكلام اسم البلاغة ، اذا سبق لفظه معناه
الى قلبك . . . وقال علماء هذا الشأن : ان اشتقاق البلاغة من البلوغ الى
الشيء ، وهو الوصول .

ويجوز - عندي - أن يكون الكلام البليغ : الذي بلغ من جودة الالفاظ ،
وعذوبة المعاني الى غاية لا يبلغ الى مثلها الا مثله . « (١٦٠) .

وهذا الذي انتهى اليه خير - فيما أرى - من كثير مما نقله ، وأكن
أكثر البلاغيين الذين جاؤوا بعد القزويني ، كانوا قد اتخذوا من قوله في
البلاغة مصطلحاً ، ودخل في كتب التعريفات والمصطلحات ، فقال الشريف
الجرجاني - ٨١٦ هـ : « البلاغة في الكلام : مطابقتها لمقتضى الحال - المراد
بالحال الامر الداعي الى التكلم على وجه مخصوص - مع فصاحته ، أي :
فصاحة الكلام . » (١٦١)

ودخل المصطلح - بهذه الدلالة كذلك - في كتب البلاغة العربية المحدثه
والمعاصرة . غير ان عدداً قليلاً من البلاغيين المحدثين آثر الاستعاضة عن لفظ
البلاغة بغيره ، لعل من أبرزهم الاستاذ امين الخولي الذي آثر عليه فن
القول (١٦٢) .

كما ان هؤلاء من اشار الى ابتهام لفظ البلاغة وقصور مفهومه ، فقال استاذي
الدكتور عبدالرزاق محيي الدين رحمه الله .

(١٦٠) الفرائد : ٩ .

(١٦١) التعريفات : ٤٠ .

(١٦٢) انظر : فن القول .

الدكتور محمد جابر نياض

« . . ثم اعطف - بعد ذلك - على مصطلح البلاغة . وقد اخذت من بلوغ الشيء ، والانتهاء اليه ، فالكلام البليغ : ما بلغ الغاية في أداء المعنى والكاتب البليغ ، والشاعر البليغ : من بلغ القصد من عبارته .

وقد ظلت هذه الكلمة غير وافية بالمعنى الذي أريد لما أن تباعه ، واستعملت ردفاً للفصاحة والبراعة والبيان والبديع . كما ظلت مرددة بين أن تكون صفة للفظ ، أو صفة للمعنى ، أو صفة للأسلوب الذي يجمع بينهما ، إلى أن استقر بها ، وبرقيقتها الفصاحة الامر ، فكان اللفظ من حصة الفصاحة ، وكان الأسلوب - اللفظ المركب مؤدى به معنى ، مع شرط الفصاحة - وكان أن حددت بـ - مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته - . . . والتعريف - على دقته وشموله - يتصف بالغموض والابتهام على الصورة التي يعرفها السادة الزملاء . وفي مفتاح العلوم وتلخيصه وشروحه محاولات مبهمة لتوضيحه ومع هذه الصورة من الغموض . وظل التعريف كما هو في الكتب المحدثه . » (١٦٣)

وغير خاف أن البحث في البلاغة ، وليس في فن القول ولا غيره مما اقترح أن يكون بديلاً عنها ، ولا في المقارنة والموازنة بينها وبين تلك البدائل المقترحة ، كما أن البحث معني بدلالة البلاغة على النحو الذي فهمت به عند المعنيين بها . وليس معنياً بمر وغموض ما حدثت به أو سهواته ووضوحه .

وإستاذي رحمہ اللہ لم يتردد في نعت حدها بالدقة والشمول ، ولم يعدل عنه إلى غيره مع ما قاله فيه .

وهما يكن من شيء ، فقد وقفنا على جل ما وصل إلينا مما قيل في البلاغة ان لم أقل كله منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا ، ورأينا أن كل هذه الأقوال

— بما فيها قول العتابي — انما تنصرف الى الحذق والمهارة ، والاصابة والاجادة والاحكام والتمكن ، وغير ذلك مما يمكن أن يوصف به حذق القول وصاغة الكلام لا الى مجرد ابلاغ السامع ما يريد القائل كيفما اتفق فهي تجلية المعنى العزيز باللفظ الوجيه وتطبيق المفصل قبل التحزيز ، وألا تبطل ، والاقتنار على الایجاز وتكب الفضول ، وتقريب بعيد الحكمة بأسهل عبارة ، ودنو المأخذ ، وقرع الحجج : والقول المفقح في لطف ، وما رضىته الخاصة وفهمته العامة ، وتخير اللفظ في حسن افهام ، واستباق اللفظ والمعنى ، فلا يكون اللفظ الى السمع اسرع من المعنى الى القلب ، ومطابقة فصيح الكلام لمقتضى الحال ، وغير هذه الاقوال التي لاتنضي الا الى تعزيز ما انتهوا اليه في تحقيقها لغة من أنها الافتنان في اختيار عناصر الكلام والمهارة في الصياغة أو النظم وتخليص الكلام من كل ما يمكن أن ينقض منه ، فهي نضج الكلام واكتماله .

